

الوجيز في تاريخ السنة

الدكتور

توفيق الواعي

عني به

عصام فارس



دار عمار



الوجيز

في

تاريخ السنة

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠٠٩/١٢/٥٤٠٩)

٢٣٠

الواعي ، توفيق يوسف

الوجيز في تاريخ السنة / توفيق يوسف الواعي - عمان : دار عمار للنشر والتوزيع، ٢٠٠٩.

(   )ص.

ر.إ.: (٥٤٠٩ / ١٢ / ٢٠٠٩).

الواصفات / الحديث الشريف // أصول الفقه /

❖ أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية

❖ يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى .



دار عمار للنشر والتوزيع

عمان - ساحة الجامع الحسيني - سوق البتراء - عمارة الحجيري
تلفاكس ٤٦٥٢٤٣٧ - ص.ب ٩٢١٦٩١ عمان ١١١٩٢ الأردن
E-mail: dar_ammar@hotmail.com

الوجيز

في

تاريخ السنة

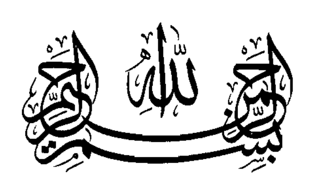
الدكتور

توفيق الواعي

عني به

عصام فارس

دار عمار



تمهيد:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، سيدنا وقدوتنا محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهديه واستن بسنته إلى يوم الدين، وبعد:

فهذه مقتطفات مختارة من كتاب تاريخ السنة للشيخ محمد محمد أبو زهو. ولقد تم اختيارها بما يتناسب مع مشروعنا في الثقافة الإسلامية، وقد جاءت في جزأين:

الأول: مقدمة تضمنت أربعة مباحث تناولت معنى السنة لغة واصطلاحاً، وبيان أن السنة هي من الوحي، وأنها مبينة للقرآن الكريم، وتوضيح منزلتها في الدين.

والجزء الثاني:حول السنة في أدوارها المختلفة، وتضمنت أربعة أدوار، كل دور منها احتوى مجموعة من المباحث:

الدور الأول: السنة على النبي ﷺ.

الدور الثاني: السنة في زمن الخلافة الراشدة.

الدور الثالث: السنة بعد الخلافة الراشدة إلى نهاية القرن الهجري الأول.

الدور الرابع: السنة في القرنين الثاني والثالث الهجريين.

ويتوقع أن تحقق دراسة هذا الكتاب الأهداف الآتية:

الأهداف العامة:

١ - التعرف على السنة، ومنزلتها، والرد على الشبهات المثارة حولها.

٢ - الإلمام بالمراحل التاريخية التي مرّت بها السنة النبوية، وتفنيد الشبهات المثارة حولها.

الأهداف الخاصة:

يُتوقع من القارئ بعد الانتهاء من دراسة هذا الكتاب أن يكون قادراً على أن:

١ - يوضح المقصود بتاريخ السنة.

٢ - يكتب كلمة فوائد دراسة تاريخ السنة.

٣- يكتب كلمة موجزة عن نشأة الكتابة في تاريخ السنة.

٤ - يلخص مراحل تطور الكتابة في تاريخ السنة فيما لا يزيد على سبع دقائق.

٥ - يعلل للكتابة في تاريخ السنة.

٦- يعرف السنة لغة واصطلاحاً عند المحدثين والفقهاء والأصوليين والوعاظ.

٧- يرد على الشبهات المثارة حول تعريف السنة.

٨- يوضح علاقة السنة بالحديث والخبر والأثر.

٩ - يعدد أقسام السنة من حيث الاقتداء بها وعدمه.

١٠- يبين منزلة السنة من الإسلام عموماً، والقرآن الكريم على وجه التخصيص.

١١- يدلل على حجية السنة من النقل والعقل.

١٢- يرد على الشبهات حول السنة كلاً أو بعضاً.

١٣- يعرف خبر الآحاد.

١٤- يذكر ثلاثة أمثلة من أحاديث الآحاد.

١٥- يرد على من يترك العمل بأحاديث الآحاد.

١٦- يسرد بعضاً من الأحكام التي أتت بها السنة زيادة على القرآن.

١٧- يرد على من يترك العمل بالسنة الزائدة على القرآن.

١٨- يذكر ثلاثة مراجع على الأقل من مراجع تاريخ السنة.

١٩- يذكر المراحل التي مرت بها السنة النبوية إلى اليوم إجمالاً.

٢٠- يوضح ما كانت عليه السنة النبوية في العصر النبوي من حيث جمعها وحفظها وإبلاغها للناس، والبواعث الداعية لذلك.

٢١- يوضح منهجية جمع السنة في العصر النبوي.

٢٢- يوضح جهود الصحابة في حفظ السنة في عهد الخلفاء الراشدين.

٢٣- يوضح جهود حفظ السنة بعد الخلفاء الراشدين إلى نهاية عهد عمر بن عبد العزيز.

٢٤- يعدد خطوات حفظ السنة ونشرها في الناس في القرن الأول الهجري.

٢٥- يرد على بعض الشبهات المثارة حول حفظ السنة ونشرها في القرن الأول الهجري.

٢٦- يبين جهود العلماء في حفظ السنة في القرنين الثاني والثالث الهجريين.

٢٧- يتحدث عن كيفية ظهور المصنفات الحديثة في القرنين الثاني والثالث

الهجريين.

٢٨- يميز بين المصنفات الحديثة رواية ودراية.

٢٩- يعطي نبذة عن تاريخ الرواة مع الاهتمام بالجرح والتعديل.

٣٠- يرد على الشبهات التي أثيرت حول الحديث في القرنين الثاني والثالث الهجريين.

٣١- يبين جهود السنة من أول القرن الرابع الهجري إلى سقوط الخلافة العباسية.

٣٢- يوضح قيمة هذه الجهود بالنسبة للفرد والمجتمع.

٣٣- يوضح جهود خدمة السنة في القرن الرابع الهجري إلى يومنا هذا.

٣٤- يوضح قيمة هذه الجهود بالنسبة للفرد والمجتمع.

٣٥- يبين ما ينبغي عمله اليوم للإفادة من السنة في ضوء التعبير العالمي والتقنية المعاصرة.

٣٦- يتابع الشبهات المثارة حول السنة مع حرصة على الرد عليها.

٣٧- يحدد سبل الإفادة من السنة بأقل جهد وفي أقصر وقت.

٣٨- يقبل على قراءة كتب السنة التي تجمع بين الأصالة والمعاصرة.

٣٩- يسعى إلى نشر هذا الفقه بين الناس.

٤٠- يتقن حفظ الأربعين النووية – على الأقل – سنداً وفقهاً.

٤١- يعرف بالإمام البخاري، ويوضح منهجه في صحيحه مبيناً قيمة هذا المنهج وسبيل الإفادة من صحيح البخاري.

٤٢- يعرف بالإمام مسلم، ويوضح منهجه في صحيحه مبيناً قيمة هذا

المنهج وسبيل الإفادة من صحيح مسلم.

٤٣- يعرف بالإمام أبي داود، ويوضح منهجه في سننه مبيناً قيمة هذا المنهج وسبيل الإفادة من سنن الترمذي.

٤٤- يعرف بالإمام النسائي، ويوضح منهجه في سننه مبيناً قيمة هذا المنهج وسبيل الإفادة من سنن النسائي.

٤٥- يعرف بالإمام ابن ماجه، ويوضح منهجه في سننه مبيناً قيمة هذا المنهج وسبيل الإفادة من سنن ابن ماجه.

٤٦- يعرف بالإمام مالك بن أنس، ويوضح منهج الإمام مالك بن أنس في سننه مبيناً قيمة هذا المنهج وسبيل الإفادة من الموطأ.

٤٧- يعرف بالإمام أحمد بن حنبل، ويوضح منهج الإمام أحمد بن حنبل في سننه مبيناً قيمة هذا المنهج وسبيل الإفادة من المسند.

٤٨- يعرف بالإمام الدارمي، ويوضح منهج الإمام الدارمي في سننه مبيناً قيمة هذا المنهج وسبيل الإفادة من السنن.

الأهداف السلوكية:

١- يحرص على الالتزام بسنة النبي ﷺ.

٢- يرغب في معرفة تاريخ سنة النبي ﷺ.

٣- يشارك في توضيح سنة النبي ﷺ.

٤- يسعى لبيان أهمية سنة النبي ﷺ في تفسير القرآن وتوضيح مجمله.

٥- يجتهد في الرد على الشبهات المثارة حول سنة النبي ﷺ.

٦- ينفر ممن يطعن في سنة النبي ﷺ.

٧- يشجع المدافعين عن سنة النبي ﷺ.

٨- يشارك في الدفاع عن الشخصيات التي حملت سنة النبي ﷺ من مثال أبي هريرة رضي الله عنه، وابن شهاب الزهري وغيرهم.

٩- يبدي اعتزازه بالجهود المتواصلة لحفظ السنة.

١٠- يسعى في خدمة العلماء الذين وفروا حياتهم لخدمة السنة.

١١- يكثر من الدعاء لهؤلاء العلماء.

كما يتوقع من القارئ الكريم أن يقوم بتنفيذ ما يستطيعه من النشاطات العملية المذكورة في نهاية الكتاب، لما لتنفيذها من أثر في تعزيز المفاهيم وتعميقها.

والله نسأل أن يتقبل منا هذا العمل خدمة لرسول الله ﷺ وسنته الشريفة المطهرة، والله من وراء القصد.



مباحث حول السنة والوحي، ومنزلتها في الدين وعلاقتها بالقرآن الكريم

وتشتمل على أربعة مباحث:

المبحث الأول ـ معنى السنة لغة واصطلاحاً.

المبحث الثاني ـ السنة من الوحي.

المبحث الثالث ـ منزلة السنة في الدين.

المبحث الرابع ـ السنة مُبَيِّنة للقرآن الكريم.

المبحث الأول

معنى السنة لغة واصطلاحاً

السنة في اللغة: الطريقةُ حسنةً كانت أم سيئة، ومنه قوله ﷺ: «مَنْ سَنَّ سنة حسنة فله أجرها وأجرُ مَنْ عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة» رواه مسلم.

جاء في لسان العرب: السنة: السيرة حسنة كانت أو قبيحة.

قال خالد بن عتبة الهذلي:

فلا تجزعـن من سيرةٍ أنتَ سِرْتَهَا   فأول راضٍ سنةً مَنْ يسيرها

سننتها سناً واستننتها: سِرْتُها. وسَننتُ لكم سنة فاتبعوها، وفي الحديث: (من سن سنة حسنة) إلخ يريد عملها لِيُقْتدى به فيها. وكل من ابتدأ أمراً عمل به قوم بعده قيل هو الذي سنه.

قال نصيب:

كأني سَنَنـــــــتُ الحب أول عاشق   من الناس إذ أحببتُ من بينهم وحدي

وقد تكرر في الحديث ذكر السنة وما تصرف منها والأصل فيه الطريقة والسيرة..
وإذا أطلقت في الشرع فإنما يراد بها ما أمر به النبي ﷺ ونهى عنه وندب إليه قولاً وفعلاً

مما لم ينطق به الكتاب العزيز. ولهذا يقال في أدلة الشرع الكتاب والسنة، أي القرآن والحديث) أ هـ.

السنة في لسان أهل الشرع:

يختلف معنى السنة عند أهل الشرع حسب اختلاف الأغراض التي اتجهوا إليها من أبحاثهم فمثلاً علماء أصول الفقه عُنُوا بالبحث عن الأدلة الشرعية وعلماء الحديث عُنوا بنقلِ ما نُسب إلى النبي ﷺ. وعلماء الفقه عنوا بالبحث عن الأحكام الشرعية من فرضٍ وواجب ومندوب وحرام ومكروه. والمتصدرون للوعظ والإرشاد عنوا بكل ما أمر به الشرع أو نهى عنه. لذلك اختلف المراد من لفظ السنة عندهم؛ بل وقد يقع الاختلاف أيضاً بين علماء الطائفة الواحدة منهم.

فعلماء الأصول يطلقون لفظ السنة على أقوال النبي ﷺ وأفعاله وتقريراته. وبعض الأصوليين يطلق لفظ السنة على ما عمل عليه أصحاب رسول الله ﷺ سواء أكان ذلك في الكتاب العزيز أم عن النبي ﷺ أم لا، كما فعلوا في جمع المصحف وتدوين الدواوين ونحو ذلك. ويدل على هذا الإطلاق قوله ﷺ فيما رواه مسلم: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي» وذهب إلى هذا أيضاً طائفة من المحدثين.

وعلماء الفقه يريدون بالسنة الطريقة المسلوكة في الدين من غير افتراض ولا وجوب.

وعلماء الوعظ والإرشاد يريدون بالسنة ما قابل البدعة، فيقال عندهم: فلان على سنة إذا عمل على وفق ما عمل عليه النبيُّ ﷺ سواء كان ذلك مما نُصَّ عليه في الكتاب العزيز أو لم يكن، ويقال: فلان على بدعة: إذا عمل على خلاف ذلك.

وعلماء الحديث يريدون بالسنة (على ما ذهب إليه جمهورهم) أقوال النبي ﷺ وأفعاله وتقريراته وصفاته الخَلْقية والخُلُقية وسيرته ومغازيه وبعض أخباره قبل البعثة مثل تَحنثُّهِ في غار حراء، ومثل حسن سيرته، لأن الحال يستفاد منها ما كان عليه من كريم الأخلاق ومحاسن الأفعال كقول خديجة أم المؤمنين له ﷺ: «كلا والله لا يخزيك الله أبداً إنك لَتصِلُ الرحمَ وتحملُ الكَلَّ وتَقري الضيف وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الحق»، ومثل أنه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، وأنه عُرف بالصدق والأمانة، وما إلى ذلك من صفات الخير وحسن الخلق، فمثل ذلك يُنتفع به في إثبات نبوته ﷺ كثيراً كما حصل من هرقل في حديثه المشهور. والسنة بهذا المعنى مرادفة للحديث النبوي عندهم.

المبحث الثاني

السنة من الوحي

السنة النبوية بالمعنى السابق: ما أضيف إلى النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير هي أَحدُ قسمي الوحي الإلهي الذي نزل به جبريل الأمين على النبي الكريم ﷺ. والقسم الثاني من الوحي هو القرآن الكريم. فالسنة النبوية من الوحي، بذلك نطق الكتاب العزيز ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ [النجم]. وبذلك جاءت السنة نفسها، فقد روى أبو داود والترمذي وابن ماجة عن المقدام بن معد يكرب أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه أَلاَ يُوشِكُ رجلٌ شبعان على أريكةٍ يقول: عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلالٍ فأَحِلُّوه وما وجدتم فيه من حرام فحرِّموه، ألا وإن ما حَرَّمَ رسولُ الله ﷺ كما حرم الله».

وعن حسان بن عطية أنه قال: «كان جبريل عليه السلام ينزل على رسول الله ﷺ بالسنة كما ينزل عليه بالقرآن ويعلمه إياها كما يعلمه القرآن».

وعن مكحول قال: قال رسول الله ﷺ: «آتاني الله القرآن ومن الحِكْمة مِثْليه» أخرجهما أبو داود في مراسيله.

هذا ولما كانت السنة صنو الكتاب العزيز، ونوعاً من وحي رب العالمين رأينا أن نتكلم عن الوحي وأقسامه بإيجاز، حتى يتضح المقام، ويتبين لنا الفرق بين السنة

والكتاب، فنقول:

الوحي وأقسامه:

الوحي يطلق ويراد منه الإيحاء، ويطلق ويراد منه الموحى به، ولا بد من بيانهما.

الوحي بمعنى الإيحاء:

الوحي بمعنى الإيحاء معناه لغة: الإعلام بالشيء على وجه الخفاء والسرعة، ولذا كانت الكتابة والإشارة والرمز والكلام الخفي من قبيل الوحي عند أهل اللغة.

ومعناه في لسان الشرع: إعلامُ الله لأنبيائه ما يريد إبلاغه إليهم من الشرائع والأخبار بطريق خفي بحيث يحصل عندهم علم ضروري قطعي بأن ذلك من عند الله جل شأنه. فهو أخص من المعنى اللغوي باعتبارِ مصدرهِ وهو الله سبحانه، وموردِه وهم أنبياؤه الكرام.

أقسامه:

إعلام الله لأنبيائه ما يريد، ويقع على أحوال ثلاثة أشار الله إليها بقوله: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ﴿٥١﴾﴾ [الشورى] وإليك بيانها:

أولاً: الإعلام بطريق الإلهام، وهو إلقاء المعنى في قلب النبي دفعة مع العلم اليقيني بأن ذلك من الله عز وجل، وقد يكون هذا الإلهام في المنام كما يكون في اليقظة. وهذا النوع من الوحي هو المراد من قوله تعالى في الآية السابقة (إلا وحياً) بدليل مقابلته بالقسمين بعده.

ثانياً: الكلام من وراء حجاب، أي بدون رؤية النبي لربه عز وجل وقت التكلم بحيث يسمع كلامه ولا يراه كما حصل ذلك لموسى عليه السلام في بدء رسالته وقد رأى ناراً فقال لأهله امكثوا ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ ﴿١٢﴾﴾ [طه]، وعند مجيئه للميقات كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأعراف]. وكما حصل ذلك لنبينا محمد ﷺ ليلة المعراج عند فرض الصلاة عليه وعلى أمته ومراجعته رَبَّهُ فيها على ما صَرَّحت به الأحاديثُ الصحيحة.

ثالثاً: إعلام الله للنبي ما يريد أن يبلغه إليه بواسطة الملك في اليقظة أو المنام. ثم الإعلام بواسطة الملك يقع على وجهين: لأن النبي تارة يشاهد الملك عند الوحي إما على صورته الحقيقية وهذا نادر، وإما متمثلاً في صورة بشر، كما كان جبريل يتمثل للنبي ﷺ في صورة الصحابي الجليل دحية الكلبي ـ وتارة لا يرى النبيُّ المَلَكَ عند الوحي وإنما يسمع عند قدومه دَوِيّاً وصَلْصلةً شديدة يعلم الله كنهها ومصدرها فتعتريه حالة روحية غير عادية لا يدرك الحاضرون منها إلا أماراتها الظاهرية كثقل بدنه وتَفَصُّدِ جبينه عرقاً.

روى البخاري في الصحيح عن عروة عن عائشة رضي الله عنها أن الحارث بن هشام سأل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصمُ عني وقد وَعَيْتُ عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأَعِي ما يقول. قالت عائشة رضي الله عنها: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً.

وربما سمع الحاضرون عند وجهه الكريم دوياً كدوي النحل عند مجيء الوحي.

أخرج الترمذي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي يُسْمَعُ عند وجهه كدويِّ النحل. الحديث.

الوحي بمعنى الموحى به:

الوحي بمعنى الموحى به ينقسم إلى مَتْلُوٍّ وإلى غير متلو:

١ - فمن الوحي المتلو القرآن الكريم الذي جعله الله آية باهرة ومعجزة قاهرة وحجة باقية على نبوة سيدنا محمد ﷺ وتكفَّلَ بحفظه من التبديل والتحريف إلى قيام الساعة فقال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾ [الحجر] نزل به جبريل الأمين على النبي ﷺ بلفظه ومعناه من غير أن يكون لواحدٍ منهما مدخلٌ فيه بوجهٍ من الوجوه وإنما هو تنزيل من الله العزيز الحكيم قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ۝١٩٥﴾ [الشعراء].

وقد انعقد الإجماع على أن القرآن الكريم نزل على النبي ﷺ في اليقظة بواسطة جبريل عليه السلام، وأنه لم ينزل عليه منه شيء في النوم ولا بطريق من طرق الوحي الأخرى. وليس ذلك لأن طرق الوحي الأخرى يعتريها اللبسُ أو يلحقها الشكُّ؛ كلا فالوحي بجميع أنواعه في اليقظة أو المنام يُصاحِبُه عِلْمٌ يقيني ضروري بأنه من الله سبحانه. وإنما كان الإجماع على ما ذكرنا لأنه الواقع الذي تفيده الأحاديث والآثار الواردة في أسباب النزول ـ فإن قيل روى مسلم عن أنس أنه قال: «بينا رسول الله ﷺ بين أظهرنا إذ غفا إغفاءة، ثم رفع رأسه مبتسماً، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله! فقال: أنزل علي آنفاً سورة فقرأ سورة الكوثر» فهذا يفيد أن سورة الكوثر نزلت في النوم،

قلنا: أجاب العلماء عن ذلك بأن الإغفاءة الواردة في الحديث ليست إغفاءة نوم، وإنما هي ما كان يعتريه عند نزول الملك من بُرحاءِ الوحي وشِدَّتِه، وقد ذكر العلماء أنه كان يُؤْخَذُ عن الدنيا عند نزول الوحي عليه لِتَغلُّبِ روحيته على بشريته ﷺ.

ومن خصائص القرآن الكريم أنه مُتَعبَّدٌ بتلاوته في الصلاة وخارجها وأنه لا تجوز روايته بالمعنى وأنه معجز بلفظه ومعناه ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء].

٢- ومن الوحي غير المتلو السنة النبوية لقوله تعالى ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ [النجم] وقوله ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [النساء] إلى غير ذلك من الأدلة، وقد تقدم بعضها غير أن السنة النبوية تفارق القرآن الكريم بأمور كثيرة أهمها أنها مُنَزَّلَةٌ بالمعنى ولفظها من النبي ﷺ ومن هنا جاز روايتها بالمعنى للخبير بمقاصدها العارف بمعانيها وألفاظها عند من يرى ذلك من العلماء، وأنها ليست معجزة بألفاظها ولا مُتعبَّداً بتلاوتها، وأنها نزلت بطرق الوحي السابقة في المنام أو اليقظة بواسطة الملك أو غيره.

وقد يشكل على أن السنة بأقسامها وأقوالها وأفعالها وتقريراتها من الوحي ما قرره العلماء من جواز الاجتهاد له ﷺ، وأنه اجتهد في كثير من الوقائع في الحروب وغيرها فجعل السنة بأقسامها الثلاثة مُوحىً بها من الله سبحانه يعارض ما قرره جمهور العلماء فضلاً عن أنه يسلبه ﷺ خصائصه ومزاياه من الفهم الثاقب والرأي الصائب؛ والجواب عن ذلك أنه ﷺ وإن اجتهد في كثير من المواطن التي لم ينزل عليه فيها وحي بمقتضى ما فطر عليه من العقل السليم والنظر السديد إلا أن الله سبحانه لا يتركه

وشأنه ولكن يُقِرُّه إذا أصاب ويُنَبِّهُ إنْ أخطأ ومن هنا كان اجتهاده ﷺ إذا أقره الله عليه وحياً حكماً. فلا تعارض بين ما قرره العلماء وما قررنا من أن السنة بأقسامها وحي من الله سبحانه ثم إن ذلك لا يسلبه ﷺ شيئاً من خصائصه ومزاياه كما قيل؛ بل يؤكدها ويقررها.

الحديث القدسي ومن أَيِّ أقسام الوحي هو:

هناك طائفة من الأحاديث نقلت إلينا عنه ﷺ مع إسنادها إلى الربِّ عَزَّ اسمُه تُعرف بالأحاديث القدسية أو الإلهية أو الربانية، فهل هي من كلامه تعالى وقوله؟ أوهي من كلامه ﷺ ولفظه؟ وإذا كانت من كلامه تعالى أَفيثبتُ لها خصائص القرآن الكريم أم لا؟ والجواب عن ذلك أن للعلماء قولين في الأحاديث القدسية.

الأول: ـ أنها من كلام الله تعالى، وليس للنبي ﷺ إلا حكايتها عن ربه عز وجل وربما يُستأنَسُ لذلك بأمور:

١ - أن هذه الأحاديث أضيفت إلى الله تعالى فقيل فيها قدسية وإلهية وربانية، فلو كان لفظها من عنده ﷺ لما كان لها فضلُ اختصاصٍ بالإضافة إليه تعالى دون سائر أحاديثه ﷺ.

٢-وأنها اشتملت على ضمائر التكلم الخاصة به تعالى كقوله: (يا عبادي إني حرمتُ الظلم على نفسي) وكقوله: (أصبحَ من عبادي مؤمنٌ بي وكافر بالكواكب).

٣- وأن هذه الأحاديث تروى عن الله تعالى متجاوزاً بها النبي ﷺ، فتارة يقول الراوي: (قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه) وتارة يقول الراوي: (قال الله تعالى فيما رواه عنه رسولُ الله ﷺ) فلو كان اللفظ من النبي ﷺ لانتُهِيَ بالروايةِ إليه كما هو الشأنُ

في الأحاديث النبوية.

هذا والأحاديث القدسية وإن كانت من كلام الله تعالى على هذا القول لكن ليس لها خصائص القرآن الكريم. فقد نُقِل القرآن إلينا بطريق التواتر معجزاً بلفظه ومعناه متعبداً بتلاوته يحرم على المُحْدِثِ مَسُّه وعلى نحو الجنب قراءته مسمى باسم (القرآن) متعيناً للصلاة به. الجملة منه تسمى آية وسورة، ولا تجوز روايته بالمعنى، وهو بجميع آياته وسوره نزل به جبريل الأمين على قلب النبي ﷺ كما سبق.

أما الأحاديث القدسية فليس لها شيء من تلك المزايا بل هي أحاديث تروى آحاداً عن النبي ﷺ عن ربه عز وجل تترجم عن عظمة الباري جَلَّ عُلاهُ، وسَعةِ رحمته وعظيمِ سلطانه وفيضِ عطائه، وهي خاضعةٌ لقواعد القبول والرد أدرجها المحدثون في عِدادِ الأحاديث النبوية وخلطوها بها في المؤلفات والتصانيف، وأجمعوا على أنها غير معجزة بألفاظها ولا مُتَعبَّد بتلاوتها، وأنها لا تسمى باسم القرآن، والراجح أنها لم يُلْتزمْ فيها طريقٌ خاصة من طرق الوحي السابقة، وأنه يجوز روايتها بالمعنى للعارف بالمعاني والألفاظ.

القول الثاني في الأحاديث القدسية: أنها من قوله ﷺ ولفظه كالأحاديث النبوية وممن قال ذلك أبو البقاء في «كلياته» وعبارته: «القرآن ما كان لفظه ومعناه من عند الله بوحي جَلِيٍّ، وأما الحديث القدسي فهو ما كان لفظه من عند الرسول ﷺ ومعناه من عند الله بالإلهام أو بالمنام» واختاره أيضاً الطيبي وعبارته: «القرآن هو اللفظ المنزل به جبريل على النبي ﷺ والحديث القدسي أخبر الله معناه بالإلهام أو بالمنام، فأخبر النبي ﷺ أمته بعبارة نفسه، وسائر الأحاديث لم يُضِفْها إلى الله تعالى، ولم يَرْوِها عنه تعالى».

وحكمة إضافتها إليه تعالى على هذا القول دون بقية الأحاديث زيادة الاهتمام بمضمونها وتوجيه النفوس إلى ما اشتملت عليه من المعاني والآداب.

الحكمة في أن الوحي المحمدي منه ما نزل باللفظ ومنه ما نزل بالمعنى:

من آثار رحمة الله تعالى أنْ جعل الشريعة المحمدية من دون الشرائع السابقة شريعةً باقية خالدة إلى أن يرث الله الأرض ومَنْ عليها، فأنزل القرآن الكريم وحياً يُتلى إلى قيام الساعة محفوظاً من التبديل والتغيير ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر]، فكان دليلاً قائماً وبرهاناً ساطعاً على إثبات نبوة محمد ﷺ إلى يوم الدين، وكان خير حافظ للشريعة المحمدية من عبث العابثين وتحريف الغالين وانتحال المُبْطلين، وكان وما يزال نوراً ساطعاً وضياء للمتقين ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [المائدة].

وكما حفظ الله شريعته بكتابٍ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه رَفَعَ الإصْرَ والحرجَ عن خَلْقِه فأنزل على نبيه الكريم إلى جانب القرآن العزيز نوعاً آخر من الوحي هو السنة أنزلها عليه بالمعنى وجعل اللفظ إليه إيذاناً بأن في الأمر سَعةً على الأمة وتخفيفاً عليها، وأن المقصود هو مضمونها لا ألفاظها، فيجوز لصحابته ومن بعدهم أن يُبلِّغوها عنه ﷺ باللفظ النبوي وهو الأَوْلى والأحوطُ لما في قوله ﷺ من أنوار النبوة وضياء الرسالة والفصاحة العربية التي لا يلحق شأوه فيها، ويجوز لهم أن يبلغوها عنه ﷺ بعبارات يُنشِئونها، وأقوالٍ تَفِي بالمعنى المقصود، ولا يكون ذلك إلا للماهرِ في لغة العرب وأساليبها، العارفِ بمعاني الشريعة ومقاصدها حتى لا ينشأ عن الرواية بالمعنى

خَللٌ يذهب بالغرض المقصود من الحديث، وفي ذلك من الخطر ما فيه، فإن السنة تبيان للقرآن العزيز ووحي من رب العالمين وثاني مصادر التشريع، فالخطأ فيها أثره جسيم وخطره عظيم ولذلك يقول رسول الله ﷺ: «مَنْ كذب علي فليتبوَّأْ مقعده من النار».

وإنك لتلمس آثار رحمة الله وحكمته في أنْ جعل الوحي على قسمين: قسماً لا تجوز روايته بالمعنى؛ بل لابد فيه من التزام الألفاظ المنزلة وهو القرآن الكريم، وقسماً تجوز روايته بالمعنى لمن يستطيع ذلك وهو السنة النبوية المطهرة، وفي ذلك صون للشريعة والتخفيف عن الأمة، ولو كان الوحي كله من قبيل القرآن الكريم في التزام أدائه بلفظه لَشقَّ الأمرُ وعَظُمَ الخَطْبُ، ولما استطاع الناس أن يقوموا بحمل هذه الأمانة الإلهية، ولو كان الوحي كله من قبيل السنة في جواز الرواية بالمعنى لكان فيه مجال للريب ومثار للشك ومَغْمزٌ للطاعنين ومنفذ للملحدين إذ يقولون لا نأمنٌ خطأ الرواة في أداء الشريعة ولا نثقُ بقولِ نَقَلةِ العقائدِ والأحكام والآداب، ولكن الله جَلَّتْ حكمته صان الشريعة بالقرآن ورفع الإصر عن الأمة بتجويز رواية السنة في الحدود السابقة لئلا يكون للناس على الله حجة.

المبحث الثالث

منزلة السنة النبوية في الدين

١ - وجوب اتباعها والتحذير من مخالفتها:

السنة النبوية وحي من الله تعالى إلى نبيه محمد ﷺ وهي أصلٌ من أصول الدين وركن في بنائه القويم يجب اتباعها وتحرم مخالفتها، على ذلك أجمع المسلمون وتضافرت الآيات على وجه لا يدع مجالاً للشك. فمن أنكر ذلك فقد نابذ الأدلة القطعية واتبع غير سبيل المؤمنين.

ومن الآيات في ذلك:

أ- قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴿٧﴾﴾ [الحشر].

ب- قوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴿٨٠﴾﴾ [النساء].

ج- قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب].

د- قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران].

هـ- قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ

ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأحزاب].

و- قوله تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ [النور].

ز- قوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء].

٢- الرد على من ينكر الاحتجاج بالسنة وأنها من أصول الدين:

المنكرون لذلك طائفتان:

طائفة ردوا السنة جملة سواء كانت متواترة أم آحادية زعماً منهم أن لا حاجةَ إليها، وفي القرآن غُنيةٌ عنها وأن النظر فيه يوصل إلى مقاصده بدون الرجوع إليها وبنوا هذا الزعم على شُبَهٍ منها:

أ- ما فهموه من قوله تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ [النحل].

ب- وما فهموه من قوله تعالى: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الأنعام].

ج- وما نسبوه إلى النبي ﷺ: (ما أتاكم عني فاعرضوه على كتاب الله، فإنْ وافق كتابَ الله فأنا قلته، وإن خالف كتاب الله فلم أقله أنا، وكيف أخالفُ كتاب الله وبه هداني الله).

وطائفة ردوا أخبار الآحاد فقط زعماً منهم أن الراوي ليس معصوماً من الكذب وأنه يجوز عليه الخطأ والنسيان.

الرد على من ينكر الاحتجاج بالسنة جملة:

هؤلاء القوم محجوجون بالأدلة السابقة وبغيرها مثل قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل].

فلو كان القرآن في غِنى عن السنة لما كان لهذه الآية معنى، ونحن إذ نستمسك بالسنة ونعمل بما جاء فيها إنما نعملُ بكتاب الله.

قيل لمطرف بن عبد الله بن الشخير: لا تحدثونا إلا بالقرآن. فقال: والله ما نبغي بالقرآن بدلاً ولكن نريد مَنْ هو أعلمُ منا بالقرآن.

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلِّجات للحُسْنِ المُغيِّرات خَلْقَ الله) فبلغ ذلك امرأةً من بني أسد فقالت: يا أبا عبد الرحمن بلغني أنك لعنتَ كيت وكيت، فقال: وما لي لا ألعن مَنْ لعنه رسولُ الله ﷺ وهو في كتاب الله. فقالت المرأة: لقد قرأتُ ما بين لوحي المصحف فما وجدته، فقال: لئن كنتِ قرأتيه لقد وجدتيه. أما قرأتِ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴿٧﴾﴾ [الحشر] قالت: بلى.قال: فإنه قد نهى عنه رسول الله ﷺ.

وروي أن طاوساً كان يصلي ركعتين بعد العصر فقال له ابن عباس: اتركهما، فقال: إنما نهى عنهما أن تُتَّخَذَا سُنةً. فقال ابن عباس: قد نهى رسول الله ﷺ عن صلاةٍ بعد صلاة العصر فلا أدري أَتعذَّبُ عليهما أم تُؤجر لأن الله تبارك وتعالى قال: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب].

وعن عمران بن حصين أنه قال لرجل (إنك امرؤ أحمق أَتجدُ في كتاب الله الظهر

أربعاً لا يُجْهَرُ فيها بالقراءة، ثم عَدَّدَ عليه الصلاةَ والزكاةَ ونحو هذا. ثم قال: أتجد ذلك في كتاب الله مفسراً. إن كتاب الله أبهم هذا، وأن السنة تفسر ذلك. ذكر هذه الآثار كلها ابن عبد البر في كتابه (جامع بيان العلم وفضله) (٢-١٨٨).

وأما ما استندوا إليه فَشُبَهٌ واهية نجيب عنها بما يأتي:

١ - المراد من قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل] إن القرآن بيانٌ لأمور الدين إما بطريق النص أو بالإحالة على السنة، وإلا لناقضَ قوله تعالى: ﴿ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل].

٢ - وأما قوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الأنعام] فالمراد بالكتاب في اللوح المحفوظ لا في القرآن بدليل السياق. قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام] أي مكتوبة أرزاقها وآجالها وأعمالها كما كُتبت أرزاقكم وآجالكم وأعمالكم (ما فرطنا) أي ما تركنا وما أغفلنا (في الكتاب) أي في اللوح المحفوظ (من شيء)؛ أي من ذلك لم نكتبه ولم نثبت ما وَجَبَ أن يثبت مما يختص به. ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الأنعام] يعني الأمم كلها من الدواب والطير فَيُعوِّضُها ويُنصفُ بعضَها من بعض. أفاده في «الكشاف».

وعلى تقدير أن المراد بالكتاب هنا القرآن فتأويله: ما فرطنا فيه من شيء من أمور الدين فهو دالٌّ عليها إما بطريق النص أو بالإحالة على السنة كما سبق.

٣- وأما الحديث الذي نسبوه إلى النبي ﷺ فذكر أئمة الحديث أنه مكذوب وضعته الزنادقة والخوارج.

قال الحافظ ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» ما نصه: (أمر الله عز وجل بطاعة رسوله ﷺ واتباعه أمراً مطلقاً مجملاً لم يقيد بشيء، كما أمرنا باتباع كتاب الله ؛ ولم يقل إذا وافق كتاب الله كما قال بعض أهل الزيغ.

قال عبد الرحمن بن مهدي: الزنادقة والخوارج وضعوا ذلك الحديث يعني ما رووا عنه ﷺ (ما أتاكم عني فاعرضوه على كتاب الله فإن وافق كتاب الله فأنا قلته. وإن خالف كتاب الله فلم أقله. وإنما أنا موافق كتاب الله وبه هداني الله).

وهذه الألفاظ لا تصح عنه ﷺ عند أهل العلم بصحيح النقل من سقيمه، وقد عارض هذا الحديثَ قومٌ من أهل العلم وقالوا نعرض هذا الحديث على كتاب الله قبل كل شيء ونعتمد على ذلك، قالوا: فلما عرضناه على كتاب الله وجدناه مخالفاً لكتاب الله، لأنا لم نجد في كتاب الله أنه لا يقبل من حديث رسول الله إلا ما وافق كتاب الله؛ بل وجدنا كتابَ الله يُطلقُ التأسي به والأمر بطاعته ويحذر من المخالفة عن أمره جملةً على كل حال. أهـ (٢ - ١٩٠).

ونقل صاحب «كشف الخفاء» عن الصغاني أن هذا الحديث موضوع فلم يبق لهؤلاء المبتدعة الذين نابذوا السنة وتأولوا القرآن على غير وجهه من حجة إلا اتباع الهوى ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ (٥٠)﴾ [القصص]. ولقد أنبأنا رسول الله ﷺ بما أطلعه الله عليه من الغيب عن هذه الفرق ومسلكها وأنهم لا يرفعون للسنة رأساً، مع أنها من وحي الله سبحانه، فقال: (يوشك رجل منكم مُتَّكئاً على أريكته يُحدِّثُ بحديثٍ عني فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله فما وجدنا فيه من حلال استحللناه وما وجدنا فيه من حرام حرمناه ألا وإن ما حرمه رسول الله ﷺ مثل الذي حرم الله)

رواه أبو داود والترمذي وغيرهما.

وروى ابن عبد البر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: (ما أخاف على هذه الأمة من مؤمن ينهاه إيمانه، ولا من فاسقٍ بَيِّنٍ فِسْقُه، ولكني أخاف عليها رجلاً قد قرأ القرآن حتى أذلقه بلسانه، ثم تأوله على غير تأويله).

٣- الرد على من ينكر الاحتجاج بالسنة الآحادية:

قسم المحدثون الحديث النبوي إلى متواتر وآحاد:

الحديث المتواتر: هو ما نقله جَمْعٌ يحصلُ العلم بصدقهم ضرورةً بأن يكونوا عدداً كثيراً لا يمكن تواطؤهم على الكذب عن مِثْلِهم من أوله إلى آخره، ولذا كان مفيداً للعلم الضروري، وهو الذي يضطر إليه الإنسان بحيث لا يمكنه دَفْعُه، ويجب العملُ به من غير بحثٍ عن رجاله، ولا يُعتبَرُ فيه عددٌ معين في الأصح.

ثم المتواتر قسمان: لفظي: وهو ما تواتر لفظه. ومعنوي: وهو ما تواتر القدر المشترك فيه.

وللأول أمثلة منها حديث: (من كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار).

وللثاني أمثلة كثيرة منها: أحاديث رفع اليدين في الدعاء، فقد روي عنه ﷺ نحو مائة حديث فيه رفع يديه في الدعاء، لكنها في قضايا مختلفة، وكل قضية منها لم تتواتر، والمتواتر هو القدر المشترك فيها وهو الرفع عند الدعاء.

خبر الواحد: وأما خبر الواحد فهو ما لم يوجد فيه شروط المتواتر سواء كان الراوي له واحداً أم أكثر، وهو نوعان (مقبول): وهو ما اتصل اسناده بنقل العدل الضابط عن مثله من مبدئه إلى منتهاه من غير شذوذ ولا علة. (ومردود): وهو ما لم

يتصل إسناده كذلك.

خبر الواحد الثقة حجة يلزم بها العمل:

الذي عليه جماهير المسلمين من الصحابة والتابعين فمن بعدهم من المحدثين والفقهاء وأصحاب الأصول أنَّ خبرَ الواحد الثقة حجةٌ من حجج الشرع يلزم العمل بها ويفيد الظن ولا يفيد العلم ويقابل هذا المذهب مذاهب أخرى منها:

١ - ما ذهب إليه القدرية والرافضة وبعض أهل الظاهر أنه لا يجب العمل به.

٢ - وقال الجبائي من المعتزلة: لا يجب العمل إلا بما رواه اثنان عن اثنين.

٣- وقال بعضهم: لا يجب العمل إلا بما رواه أربعة عن أربعة. وهذه الأقاويل التي تقابل ما عليه جماهير المسلمين كلها باطلة، فلم تزل كتب النبي ﷺ وآحاد رسله يعمل بها ويلزمهم النبي ﷺ العمل بذلك، واستمر على ذلك الخلفاء الراشدون ومن بعدهم. ولم يزل الخلفاء الراشدون وسائر الصحابة ومن بعدهم السلف والخلف على امتثال خبر الواحد إذا أخبرهم بِسُنَّةٍ، وعلى قضائهم به ورجوعهم إليه في القضاء والفتيا، ونقضهم به ما حكموا على خلافه، وطلبهم خبر الواحد عند عدم الحجة ممن هو عنده، واحتجاجهم به على من خالفهم، وانقياد المخالف لذلك، وهذا كله معروف لا شك فيه والعقل لا يحيل العمل بخبر الواحد، وقد جاء الشرع بوجوب العمل به فوجب المصير إليه. واحتج بعض العلماء لقبول خبر الواحد بأن كل صحابي أو تابعي سئل عن نازلة في الدين فأخبر السائل بما عنده فيها لم يشترط على السائل أن لا يعمل بما أخبره به من ذلك حتى يسأل غيره فضلاً عن أن يسأل الكافة؛ بل كان كل منهم يخبره بما عنده فيعمل بمقتضاه ولا ينكر عليه ذلك، فدلَّ على اتفاقهم على وجوب العمل

بخبر الواحد. وإذا وقع من بعضهم التردد في العمل به في بعض الأحوال فذلك لأسباب خارجة عن كونه خبرَ واحدٍ من ريبةٍ في الصحة أو تهمة للراوي أو جود معارض راجح أو نحو ذلك.

قال ابن القيم في «إغاثة اللهفان» ما ملخصه: (ولا ترد أحاديث الصحابة وأحاديث الأئمة الثقات بتفرد الراوي فكم من حديث تفرد به واحد من الصحابة وقبله الأئمة كلهم فلم يرده أحد منهم، وكم من حديث تفرد به واحد من التابعين، ولم يرده أحد من الأئمة، ولا نعلم أحداً من أهل العلم قديماً ولا حديثاً قال إن الحديث إذا لم يروه إلا صحابي واحد لم يُقبلْ، وإنما يحكى عن أهل البدع ومن تبعهم في ذلك أقوال لا يعرف لها قائل من الفقهاء، وقد تفرد الزهري بنحو ستين سُنَّةً لم يروها غيره وَعَمِلَ بها الأئمة ولم يَردُّوها لِتفرُّدِه، ثم إن هذا القول لا يمكن أحد من أهل العلم ولا من الأئمة ولا من أتباعهم طرده، ولو طردوه لبطل كثير من أقوالهم وفتاويهم. فإن قيل: فهذا هو الحديث الشاذ وأقلُّ أحواله أن يتوقف فيه ولا يجزم بصحته عن رسول الله ﷺ قيل: ليس هذا هو الشاذ، وإنما الشذوذ أن يخالف الراوي الثقات فيما رووه فيشذ عنهم بروايته؛ فأما إذا روى الثقة حديثاً منفرداً به لم يرو الثقات خلافه، فإن ذلك لا يسمى شاذاً وإن اصطلح على تسميته شاذاً بهذا المعنى لم يكن هذا الاصطلاح موجباً لرده ولا مسوغاً لها.

قال الشافعي رحمه الله: وليس الشاذ أن ينفرد الثقة برواية الحديث؛ بل الشاذ أن يروي خلاف ما رواه الثقات، قاله في مناظرته بعضَ مَنْ رَدَّ الحديثَ بتفرد الراوي فيه) أهـ.

وقد جود الكلام على قبول خبر الواحد الإمام الشافعي رحمه الله تعالى في رسالته المشهورة في باب على حدة، فارجع إليه إن شئت وسيأتيك طرف منه إن شاء الله تعالى.

المبحث الرابع

السنة النبوية مبينة للقرآن الكريم

أنزل الله القرآن الكريم هداية للناس في أمور دينهم ودنياهم ولكن بأسلوب إجمالي في الغالب لا يمكن الوقوف منه على مراد الله عز وجل بطريق الوضوح، وقد وكل الله إلى نبيه محمد ﷺ أن يبلغ القرآن الكريم للناس وأن يبين لهم بقوله وفعله ما يحتاج إلى البيان فقال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل] وهو ﷺ إذْ يُبينُ للناس كتابَ الله لا يصدرُ عن نفسه، ولكنه يتبع ما يُوحى إليه من ربه ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم]، ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴿٨٠﴾﴾ [النساء].

فالسنة النبوية وظيفتها تفسير القرآن الكريم والكشف عن أسراره وتوضيح مراد الله تعالى من أوامره وأحكامه.

ونحن إذا تتبعنا السنة من حيث دلالاتها على الأحكام التي اشتمل عليها القرآن إجمالاً أو تفصيلاً وجدناها ترد على هذه الوجوه الأربعة:

الأول: أن تكون موافقة لما جاء في القرآن، فتكون واردة حينئذ مورد التأكيد ومن أمثلة ذلك:

١ - قوله ﷺ: (لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب من نفسه) رواه الديلمي فإنه يوافق قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [النساء].

٢- قوله ﷺ: (اتقوا الله في النساء فإنهن عَوانٍ عندكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله) فإنه يوافق قوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ ﴿١٩﴾ ﴾ [النساء].

٣- قوله ﷺ: (إن الله ليملي للظالم فإذا أخذه لم يُفْلِتْهُ) يوافق قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [هود].

الثاني ـ أن تكون بياناً لما أريد بالقرآن، ومن أمثلة هذا النوع:

١ - بيان المُجْمَل في مثل الأحاديث التي جاء فيها تفصيلُ أحكام الصلاة والزكاة والصيام والحج وغيرها.

٢ - تَقييدُ المطلق كالأحاديث التي بَيَّنت المرادَ من اليد في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا ﴿٣٨﴾ ﴾ [المائدة] وأنها اليمنى، وأن القطع من الكوع لا من المرفق.

٣- تخصيص العام كالحديث الذي بين أن المراد من الظلم في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأنعام] هو الشِّرْكُ، فإن بعض الصحابة فهم منه العموم حتى قال: (أَيُّنا لم يَظلمْ) فقال النبي ﷺ: «ليس بذاك إنما هو الشرك».

٤ - توضيح المشكل كالحديث الذي بين المراد من الخيطين في قوله تعالى: ﴿وَكُلُواْ

وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴿١٨٧﴾ ﴾ [البقرة] فهم منه بعض الصحابة العقال الأبيض والعقال الأسود فقال ﷺ: (هما بياض النهار وسواد الليل).

الثالث: أن تكون دالة على حكم سكت عنه القرآن، ومن أمثلة هذا النوع:

١ - قوله ﷺ في البحر: (هو الطَّهورُ ماؤه الحِلُّ مَيْتَتُه).

٢ - قوله ﷺ في الجنين الخارج ميتاً من بطن أمه المذكاة (ذَكاةُ الجنين ذكاةُ أمه).

٣-الأحاديث الواردة في تحريم كل ذي نابٍ من السِّباع وكل ذي مخلب من الطير، وتحريم لحوم الحُمُرِ الأهلية.

الرابع: أنها تكون ناسخةً لحكم ثبت بالكتاب على رأي مَنْ يجوز نسخ الكتاب بالسنة، ومثال ذلك حديث: «لا وصيةَ لوارثٍ» فإنه ناسخٌ لحكم الوصية للوالدين والأقربين الوارثين الثابت بقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ [البقرة] على أحد الوجوه في تفسير الآية ـ وحديث: «البِكْرُ بالبكر جَلْدُ مائةٍ وتغريبُ عام» فهو ناسخ لآية النساء: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ ﴿١٥﴾ ﴾ الآية على أحد الوجوه أيضاً.

والأمثلة كثيرة لا سيما على مذهب الحنفية الذين يقولون إن الزيادة على الكتاب من قبيل النسخ. والمسألة مختلف فيها بين الفقهاءعلى ما هو معروف في الأصول.

وهذا النسخ من قبيل البيان لأنه بيان انتهاء أمد الحكم، ولذلك يطلق عليه بعض علماء الأصول «بيان التبديل».

هل السنة النبوية تستقل بالتشريع؟

وقد يقول قائل: إن الوجه الثالث الذي ذكرته يفيد أن السنة قد يثبت بها أحكام لم ترد في القرآن إجمالاً ولا تفصيلاً وهو يخالف ظاهر قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل] فإنه يفيد أن السنة إنما تبين القرآن ولا تتعداه إلى غيره. ولنا عن ذلك جوابان:

الجواب الأول: أنَّا لا نُسَلِّمُ خُلُوَّ القرآن عن الأحكام المذكورة في الوجه الثالث من أوجه البيان، ولكنه اشتمل عليها بطريق الإجمال فَصحَّ أن تكون السنة بياناً للقرآن بهذا الاعتبار. وتوضيح ذلك أن الأحكام التي جاءت بها السنة وسكت عنها القرآن ظاهراً يمكن أن تكون بياناً له إما بطريق الإلحاق، وإما بطريق القياس، وإما بطريق استنباط القواعد العامة من الجزئيات، وإليك توضيح ذلك:

البيان بطريق الإلحاق:

قد ينص القرآن على حِلِّ شيءٍ وحُرمةِ آخر ويكون هناك شيء ثالث لم ينص على حكمه وهو آخذٌ من كلٍّ منهما بطرفٍ فيكون ثَمَّ مجالٌ للاجتهاد في إلحاقه بأحدهما فيعطيه النبي ﷺ حكم أحدهما وحينئذ يتبين أنه كان من مشمولاته.

ومن الأمثلة على ذلك:-

١ - أحل الله الطيبات وحرم الخبائث وبقي بين هذين الأصلين أشياء يمكن إلحاقها بأحدهما، فبيَّنَ عليه الصلاة والسلام في ذلك ما اتَّضحَ به الأمرُ فنهى عن أكل كل ذي نابٍ من السباع وكل ذي مخلب من الطير، ونهى عن أكل لحوم الحمر الأهلية وقال إنها رجس، ونهى عليه الصلاة والسلام عن أكل الجَلَّالة وألبانها ذلك لما في لحمها

ولبنها من أثر، الجلة، فهذا كله راجع إلى معنى الإلحاق بأصل الخبائث كما ألحق عليه الصلاة والسلام الضبَّ والحبارى والأرنب وأشباهها بأصل الطيبات.

٢- أباح الله من صيد الجارح المُعلَّم ما أمسكَ عليكَ، وعلم من ذلك أن ما لم يكن مُعلَّماً فصيده حرام إذ لم يمسك إلا على نفسه، فدار بين الأصلين ما كان معلماً ولكنه أكل من صيده، فالتعليم يقتضي أنه أمسك عليك، والأكل يقتضي أنه اصطاد لنفسه لا لكَ، فتعارض الأصلان فجاءت السنة ببيان ذلك فقال عليه الصلاة والسلام: «فإنْ أكلَ فلا تأكلْ، فإني أخاف أن يكون إنما أمسك على نفسه» أخرجه الشيخان.

٣- أحل الله صيد البحر فيما أحل من الطيبات وحرم الميتة فيما حرم من الخبائث فدارت ميتة البحر بين الطرفين وأشكل حكمها، فقال عليه الصلاة والسلام (هو الطهور ماؤه الحل ميتته) أخرجه أصحاب السنن.

٤- حرم الله الميتة وأحل المُذَكَّاة فَدارَ الجنينُ الخارجُ من بطن المذكاة ميتاً بين الطرفين فاحتمل أن يلحق بكل منهما، فقال النبي ﷺ: (ذكاة الجنين ذكاة أمه) رواه أبو داود والترمذي وحسنه؛ وهذا منه ﷺ ترجيح لجانب الجزئية على جانب الاستقلال.

٥- قال تعالى: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ ﴿١١﴾﴾ [النساء] فبقيت البنتان مسكوتاً عنهما، فَنُقِلَ في السنة حكمهما وهو إلحاقهما بما فوق البنتين.

فهذه أمثلة يستعان بها على ما سواها، وبها يتبين أن السنة في هذا النوع مبينة للقرآن الكريم.

البيان بطريق القياس:

قد ينص القرآن على حكم شيء فَيُلحِقُ به الرسولُ ﷺ ما اجتمع معه في العلة بطريق القياس وذلك راجع في الحقيقة إلى دلالة القرآن، فإن النص القرآني المقرر لحكم الأصل وإن كان خاصاً به في الصورة فهو عام في المعنى من حيث عموم العلة. وسواء علينا أَقُلْنا أنَّ النبي ﷺ قاله بالقياس أم بالوحي إلا أنه جارٍ في أفهامنا مجرى القياس.

ومن أمثلة هذا النوع:

١ - أن الله عز وجل حرم الربا. وربا الجاهلية الذي قالوا فيه ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ﴿٢٧٥﴾﴾ [البقرة] هو فسخ الدين، في الدين يقول الطالب: إما أن تقضي وإما أن تُربي، وهو الذي دل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾ [البقرة] ولما كان المنع فيه من قبل كونه زيادة بلا عوض ألحقت السنة به كل ما فيه زيادة بهذا المعنى فقال عليه الصلاة والسلام: (الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، والبر بالبر، والشعير بالشعير، والتمر بالتمر، والملح بالملح مِثْلاً بمثل سواء بسواء، يداً بيد فمن زاد أو ازداد فقد أربى، فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيد).

٢- حرم الله الجمع بين الأختين ثم قال: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ ﴿٢٤﴾﴾ [النساء] فجاء نهيه ﷺ عن الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها من باب القياس، لأن المعنى الذي من أجله حرم الجمع بين الأختين موجود هنا وقد روي هذا المعنى في الحديث: (فإنكم إذا فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم) رواه ابن حبان.

٣- بين القرآن بعض المحرمات من الرضاع بقوله: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ ﴿٢٣﴾﴾ [النساء] فألحقت السنة بهاتين سائر القرابات بالرضاعة من اللاتي كن يحرمن بالنسب كالعمة والخالة وبنت الأخ وبنت الأخت، فقال ﷺ: (إن الله حَرَّمَ من الرضاع ما حرم من النسب) أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح، وهذا الإلحاق بطريق القياس من باب نفي الفارق بين الأصل والفرع.

البيان بطريق استنباط القواعد العامة من نصوص القرآن الجزئية في المواضع المختلفة:

قد تأتي نصوص من القرآن الكريم في معان مختلفة لكن يشملها معنى واحد فتأتي السنة بمقتضى ذلك المعنى الواحد، فيعلم أو يظن أن ذلك المعنى مأخوذ من مجموع تلك النصوص القرآنية ومن أمثلة ذلك:

١- قوله ﷺ: (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى) فهاتان القاعدتان تؤخذان من الآيات التي تحث على الإخلاص وتذم الرياء وتبين أنه ليس للإنسان إلا ما سعى مثل: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴿٥﴾﴾ [البينة]، ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ ﴿٣﴾﴾ [الزمر]، ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف]، ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٤٥﴾﴾ [النساء]، ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء]، ﴿وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ ﴿١٠٠﴾﴾ [النساء] إلى غير ذلك.

٢- قوله ﷺ: (لا ضرر ولا ضرار) فهذه القاعدة مأخوذة من عدة أوامر ونواهٍ

متفرقة في القرآن الكريم في جزئيات مختلفة منها: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا ۚ (٢٣١)﴾ [البقرة]، ﴿لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ ۚ (٢٣٣)﴾ [البقرة]، ﴿وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ۚ (٦)﴾ [الطلاق]، ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ (١٩)﴾ [النساء]، ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ (٢٨٢)﴾ [البقرة] وما في معناها.

٣- قوله ﷺ: (من حام حول الحِمى يوشك أن يقع فيه) وقوله: (دع ما يريبك إلى مالا يريبك) فكلٌّ من الحديثين معناه سد ذرائع الفساد، وهو منتزع من آيات كثيرة منها: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ (٣١)﴾ [النور]، ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ (١٠٨)﴾ [الأنعام]، ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا (١٠٤)﴾ [البقرة]، ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ (٢٥)﴾ [الفتح].

ومن ذلك كله يعلم أن السنة موضحة للقرآن ومبينة لمقاصده الكلية والجزئية.

الجواب الثاني:

فإنْ أبيتَ إلا أن تجعل الأحكام التي جاءت بها السنة زيادة عما في القرآن من قبيل استقلال السنة بالتشريع، فلا يضيرنا ذلك بعد ما نطق القرآن نفسه بأن طاعة الرسول ﷺ إنما هي طاعة لله عز وجل وأنه لا ينطق عن الهوى، فلو كان لا يطاع إلا فيما يوافق القرآن لم تكن له طاعة خاصة، وقد قال تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ (٥٩)﴾ [النساء]، وقال: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ۖ (٨٠)﴾ [النساء] كرر الفعل في الآية الأولى وجعل طاعته في الثانية طاعة لله إشارة إلى ما ذكرنا وأنه يجب طاعته مطلقاً.

وأما قوله تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل] فلا يفيد قصره ﷺ على البيان؛ بل يستفاد من هذه الآية ومن الآيتين السابقتين أنه يُبيِّنُ للناس كتابَ الله، وأنه إذا جاوز البيانَ إلى غيره من الأحكام التي لم يتعرض لها القرآنُ لا ينطقُ عن الهوى.

وقد صرح بهذا طائفة من علماء السلف فمن ذلك ما روي عن عبد الرحمن بن يزيد أنه رأى محرماً عليه ثيابه فنهاه، فقال: ائتني بآية من كتاب الله تنزع ثيابي، فقرأ عليه ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴿٧﴾﴾ [الحشر].

وما روي عن طاوس أنه كان يصلي ركعتين بعد العصر، فقال له ابن عباس اتركهما، فقال: إنما نهى عنهما أن تُتَّخَذا سنةً، فقال ابن عباس: قد نهى رسول الله ﷺ عن صلاةٍ بعد العصر، فلا أدري أتعذب عليها أم تؤجر لأن الله تعالى قال: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب] الآية.

وكذلك ما روي عن ابن مسعود حينما لعن الواشمة والمستوشمة وقد تقدم (الموافقات ٤ - ٢٤ إلى ٤٨).

هذا ونحن نرى أنه لا تخالف بين الجوابين على أصل الاعتراض، فمن قال أن السنة لا تأتي بأحكامٍ زائدة عما في القرآن أراد أن القرآن اشتمل على جميع الأحكام إما بطريق التفصيل وإما بطريق الإجمال، ومن قال أن السنة تأتي بأحكام زائدة عما في القرآن أراد بها الأحكام التفصيلية التي لم ينص عليها صراحة في القرآن، وبذلك يلتقي القولان عند نقطة واحدة.

بيان السنة للقرآن الكريم في غير الأحكام يقع على ثلاثة أضرب:

الأول ـ ما يَرِدُ موافقاً لما في القرآن فيكون مؤكِّداً له، ولا يخلو مع ذلك عن شرح وبيان كحديث الخضر مع موسى عليه السلام في البخاري وغيره، فإنه يوافق القصة المذكورة عنهما في سورة الكهف.

الثاني ـ ما يرد مورد التوضيح والشرح ومثاله قول النبي ﷺ: يُدعى نوح فيقال: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيدعى قومه فيقال: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير وما أتانا من أحد، فيقال: مَنْ شهودكَ؟ فيقول: محمد وأمته، قال: فيؤتى بكم تشهدون أنه قد بلغ فذلك قول الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴿١٤٣﴾ ﴾ [البقرة] أخرجه البخاري والترمذي.

الثالث: ما يرد على طريق الاستقلال ومن أمثلته: حديث جريج العابد وحديث الأبرص والأقرع والأعمى وحديث الصخرة، فهذه الأحاديث وما في معناها مؤكدة للمقاصد التي جاء بها القرآن وحكمتها تنشيط المكلفين وتنبيه الغافلين.



السنة في أدوارها المختلفة

الدور الأول: السنة على عهد النبي ﷺ

ويشتمل على أربعة مباحث:

المبحث الأول: استعداد الصحابة رضي الله عنهم لحفظ السنة ونشرها.

المبحث الثاني: مجالس النبي ﷺ العلمية.

المبحث الثالث: كيف كان الصحابة يتلقون الحديث عن رسول الله ﷺ.

المبحث الرابع: البعوث والوفود وأثرها في انتشار الحديث النبوي.



المبحث الأول

استعداد الصحابة رضي الله عنهم لحفظ السنة ونشرها

كان العرب قبل البعثة المحمدية في جهالة جهلاء وضلالة عمياء، بلغ بهم الجهل أن نحتوا من الحجارة أصناماً آلهة يعبدونها من دون الله، وبلغ بهم الضلال والقسوة أن كانوا يقتلون أولادهم خشية العار أو الفقر، وبلغت بهم الهمجية أن كانوا يشنون الغارات لأتفه الأسباب. الحمية الجاهلية بعض صفاتهم والعصبية القبلية متمكنة من نفوسهم يعاقرون الخمور ويتعاملون بالميسر. وكثيراً ما تنشب الحرب بينهم أعواماً طوالاً حتى تأتي على الأخضر واليابس. لا حاكمَ يزجرهم ولا دينَ يردعهم. وبالجملة فقد كانوا في فتن مدلهمة وظلمات بعضها فوق بعض حتى ضجت الجزيرة العربية من الحروب المتلاحقة واشتكت الأرض إلى ربها من هذه الدماء المسفوكة، وتشوقت النفوس إلى من ينتشلها من ظلمات الحيرة وينقذها من أحضان الجهل والوحشية. وجعلوا يلتمسون الخلاص مما هم فيه فلا يستطيعون، كالذي يبسط كَفَّيهِ إلى الماء ليبلغَ فَاهُ وما هو ببالغه.

فكان من رحمة الله بهم وبالإنسانية جمعاء أن بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة. وهذا الرسول هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب أشرف الناس نسباً وأكرم قريش أصلاً ومحتداً. بدأ رسول الله ﷺ

الدعوة إلى الله سراً حتى لا يفجأ القومَ بها، وهم على ما وصفنا غارقون في جهلهم هائمون في غيهم. فتبعه منهم أفراد قلائل لا يتجاوزون أصابع اليد، ثم جهر بالدعوة إلى الله عز وجل، فدخل في الدين من عِلْيةِ القوم خَلْقٌ كثير. دخلوا الإسلام على بينة من أمرهم واستمعوا إلى كتاب ربهم وسنة نبيهم فخالطت بشاشة الإيمان قلوبهم، لا سيما وهم متعطشون إلى ما ينقذهم من ظلمات الشرك ويهديهم إلى سبل السلام فصادف الإسلامُ قلوباً مستعدة ونفوساً متلهفة متهيأة فتمكَّنَ منها كل التمكن وجرى الإيمان فيهم مجرى الدم في عروقهم. ذلك أنهم عرفوا من الرسول ﷺ أن هذا الدين هو منبع سعادتهم ومَعقِدُ عِزِّهم وسبب نهضتهم، فعقدوا عليه خناصرهم وأحبوا رسول الله حباً يعلو على حب الآباء والأبناء وانكبُّوا على ما جاءهم به من القرآن يحفظونه وعلى ما حَدَّثهم به من بيانٍ للكتاب أو تشريع للأحكام فجمعوه في صدورهم وطبقوه على جميع أحوالهم، ثم كانت الهجرة إلى المدينة فانفسح المجال لاستماع القرآن وحضور مجالس النبي ﷺ.

عرف أصحاب رسول الله ﷺ للسنة مكانها من الدين، وأنها الركن الثاني في بنائه القويم بعد الكتاب العزيز كما علموا وصية الله تعالى باتباعها وتحذيره الشديد من مخالفتها. وأن مَنْ فَرَّطَ في أمرها أو تهاون بشأنها فهو محروم، ومن حفظها وعمل بها فهو سعيد مشكور.

ولم يَخْفَ عليهم أن القرآن العزيز رفع من شأن العلم والعلماء وحط من شأن الجهل والجهلاء فقال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الزمر]، وقال: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴿١١﴾﴾ [المجادلة] وحَثَّ على التفقه في

الدين وتبليغه إلى الناس فقال: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [التوبة].

كما لم يَخْفَ عليهم الوعيدُ الشديد على كتمان العلم في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [البقرة].

وكما جاءت الآيات القرآنية حَاثَّةً لهم على تعلم الدين وأحكامه ودرسه ونشره، كذلك جاءت الأحاديث النبوية محببة إليهم حمل العلم والتفقه في الدين، محذرة لهم من كتمانه، حاضّة على تبليغه إلى الناس، فقال ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» متفق عليه.

وقوله ﷺ:

- «الدنيا ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالماً ومتعلماً» حسنه الترمذي.
- «نضّر الله امرأ سمع منا شيئاً فبلغه كما سمعه فرب مبلغ أوعى من سامع» صححه الترمذي.
- «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة» رواه مسلم.
- «من سئل عن علم فكتمه جاء يوم القيامة مُلْجَماً بلجامٍ من نار» رواه أبو يعلى ورواته ثقات.

والآيات والأحاديث في هذا الباب كثيرة شهيرة.

ملكت هذه الآيات والأحاديث على الصحابة مشاعرهم وأخذت عليهم ألبابهم وأفعمت قلوبهم حباً لله ورسوله ﷺ، وألهبت نفوسهم نشاطاً نحو العلم والعمل، فلم يَدَّخروا وُسْعاً في حفظ الأحكام والسنن وضَحَّوْا في سبيل ذلك بأموالهم وأنفسهم.

وإلى جانب هذه الحمية الدينية استعداد فطري ونشاط طبيعي هو استعداد الحافظة ونشاط الذاكرة وسرعة الخاطرة وقوة الذكاء وكمال العبقرية.

فالصحابة عرب خُلَّص أميون لا يقرؤون ولا يكتبون، فكل اعتمادهم على مَلَكاتِهم في الحفظ وقوة شأنهم فيه. واعتبر ذلك بحالهم في الجاهلية فقد حفظوا أنسابهم ومناقبهم وأشعارهم وخطبهم، وكثيراً ما كانت تقع بينهم المفاخرة بالأنساب والأحساب فلا يُسعفُهم غير اللسان يثيرون به ما حفظوه من أخبارهم وأخبار خصومهم مما يرفع من شأنهم ويحط من شأن أعدائهم. فكان كل امرئ منهم على مقدار حفظه وقوة وعيه ترجمانَ قبيلتهِ يرفعُ من قَدْرها ويتحدث عن مفاخرها وأحسابها، والقومُ من ورائه كأنهم سِجلٌّ مليء بالحوادث والأخبار، وكتابٌ شُحِنَ بالتواريخ والآثار. ساعدهم حبهم للتفاخر بالأحساب والأنساب والتنابز بالمثالب والألقاب مع ما رسخَ فيهم من عصبية قبلية على إجادة الحفظ والضبط ونشاط في الذاكرة لم يتوفر لأمة من الأمم.

وكأن الله تعالت قدرته هيأ هذه الأمة العربية على هذا الاستعداد الهائل إرهاصاً لنبوة محمد ﷺ، فكانت هذه الصدور الحافظة مَهْداً لآي الذكر الحكيم، وكانت هذه القلوب الواعية أوعية لحديث النبي الكريم، فاندفع هؤلاء الصحابة الأجلاء إلى تلقي

حديث رسول الله بِنَهمٍ عظيم وشوقٍ كبير، وأظهر الله بهم دينه على الدين كله، وكان أمر الله قدراً مقدوراً.

نعم تظاهر هذان العاملان؛ العامل الروحي والعامل الفطري فأتى القوم بما لم تأتِ به أمةٌ من يوم أن بعث الله تعالى رسله إلى الخلق فحفظوا كتاب ربهم وسنة نبيهم واتخذوا شريعته نبراساً في أمر معاشهم ومعادهم وبلغوها إلى الناس على وجهها غضة طرية.

المبحث الثاني

مجالس النبـي ﷺ العلمية

رأيت فيما سبق كيف كان النبي ﷺ يبين أحكام القرآن العزيز وضربنا لك الأمثال التي أوضحت وظيفته ﷺ في التبليغ والبيان. ولم يكن للنبي ﷺ مدرسة مشيدة ولا معهد للتعليم يجلس فيه إلى أصحابه؛ بل كانت مجالسه العلمية كيفما اتفق فهو في الجيش معلم وواعظ يلهب القلوب بوعظه ويحمس الجنود بقوله، وهو في السفر مرشد وهادٍ، وهو في البيت يعلم أهله. وهو في المسجد مدرس وخطيب وقاض ومُفْتٍ. وهو في الطريق يستوقفه أضعف الناس ليسأله عن أمر دينه فيقف. وهو على كل أحواله مرشد وناصح ومعلم. إلا أنه كثيراً ما كان يقعد لأصحابه بالمجالس العلمية بالمسجد حيث يجتمعون فيه في أغلب الأوقات لأداء فريضة الصلاة فكان يَتخوَّلُهم بالموعظةِ تِلْوَ الموعظة والدرس تلو الدرس حتى لا يملوا ويسأموا.

روى البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «كان النبي ﷺ يتخوّلنا بالموعظة في الأيام كراهة السآمة علينا» وفي هذه المجالس كان ﷺ يفيض على أصحابه من الكلم الطيب والعلم النافع والهدي الرشيد ما يشرح صدورهم ويفعم قلوبهم. وكانوا يُحضِرون أولادهم مجالسَ الرسول ﷺ لسماع حديثه والتأدب بآدابه، وكان عليه السلام كثيراً ما يُستفتى فيفتي أو يُسأل فيجيب، أو تقع أمامه الحادثة فيكشف عن

حكم الله فيها أو تنزل عليه الآية من القرآن فيفصح عن مراد الله منها، أو يقع من بعض الصحابة عمل لم يكن يعرف حكمه فيسكت إيذاناً منه بأنه جائز في الدين.

ولا تظن أن رسول الله ﷺ كان ملكاً محجوباً عن رعيته أو سلطاناً مترفعاً عن الاختلاط بأفراد أمته. بل كان على عكس ذلك متقلباً بين ظهرانيهم يبلغ رسالة ربه ويعود مرضاهم ويشيع موتاهم ويفصل في قضاياهم ويفض منازعاتهم ويقضي على اختلافاتهم، وهم في كل ذلك مقبلون عليه بآذان صاغية وقلوب واعية.

هذا ولم تكن الصحابة رضي الله عنهم في حضور مجالسه العلمية سواء؛ بل كان منهم من يلازمه ولا يتخلف عنه في الحضر ولا في السفر كما كان من أبي بكر وأبي هريرة رضي الله عنهما. وكان منهم من يتخلف عنه في بعض الأوقات لقضاء مصالحه المعيشية كزراعة أو تجارة أو نحوها أو الخروج في سرية، إلى غير ذلك. ومع ذلك فكانوا حريصين على ما فاتهم من دروس النبي ﷺ فإذا ما حضروا سألوا واستفسروا. وكان من الصحابة من يشتد به الحِرصُ على حديث رسول الله ﷺ فيتناوبُ حضورَ مجالسه مع جارٍ له يحضر هذا يوماً وهذا يوماً، ثم يخبر كل منهما صاحبه عما سمعه في يومه كما جاء ذلك في صحيح البخاري عن عمر بن الخطاب أنه كان هو وجار له من الأنصار يتناوبان مجالس رسول الله ﷺ ويخبر كل منهما صاحبه بما رآه أو سمعه.

أما مَنْ بَعُدَتْ عليهم الشُّقةُ فكانوا إذا نزلت بهم نازلة وأشكل عليهم حَلُّها فإنهم يضربون أكباد الإبل إلى مدينة الرسول ﷺ ليقفوا على حكم الله فيما عرض لهم من الحوادث، وربما مكثوا في أسفارهم الأيام والليالي ذوات العدد.

يروي لنا البخاري في «صحيحه» عن عقبة بن الحارث أنه أخبرته امرأة بأنها

أرضعته هو وزوجه، فركب من فوره ـ وكان بمكة ـ قاصداً المدينة حتى بلغ رسول الله ﷺ فسأله عن حكم الله فيمن تزوج امرأة لا يعلم أنها أخته من الرضاع، ثم أخبرته بذلك من أرضعتهما، فقال له النبي ﷺ: «كيف وقد قيل» ففارق زوجته لوقته.

علم النبي ﷺ أن أصحابه سيخلفونه من بعده وسيقع على كاهلهم أمر الإرشاد والتعليم، فأتى في دروسه التعليمية بأمورٍ كان لها أكبرُ الأثرِ في توجيه الصحابة وتعليمهم كيف يضطلعون بمهمة التعليم فيما بعد.

ولنذكر لك أمثلة من هَدْيِهِ التعليمي الذي كان مناراً اهتدى به أصحابه رضي الله عنهم.

ـ كان من هديه التعليمي عليه السلام أنه إذا سئل عما لا يعلم يسكت منتظراً الوحي من الله بذلك.

وكان من هديه ﷺ أنه إذا قال كلمة أعادها ثلاثاً حتى تُفْهَمَ عنه.

وكان من هديه عليه السلام أنه ربما طرح المسألة على أصحابه ليختبر ما عندهم من العلم وليشحذ أذهانهم للفهم.

ـ وكان إذا سئل عن مسألة فأجاب عنها فإنه قد يفيض في مسائل أخرى لها مناسبة بالمقام أو صِلَةٌ بالجواب فيستطرد إليها ليفيد السائل والحاضرين علماً جديداً.

وكان يتخولهم بالموعظة كراهة الملل حتى أن أصحاب ابن مسعود طلبوا منه أن يحدثهم كل يوم فأبى، وقال: إنما نتخولكم بالموعظة كما كان رسول الله ﷺ يتخولنا كراهةَ السآمة علينا.

وكان ﷺ يخص بعض أصحابه بالعلم دون بعض مخافةَ ألا يفهموا فَيُفتنوا إلى غير

ذلك من الأمثلة التي إذا تتبعناها في حديث رسول الله ﷺ اطلعنا منه على خطة حكيمة في توجيه الصحابة حتى كانوا أساتذة في التعليم أمناء على أحكام الدين كما ستطلع عليه عند الكلام على السنة في الدور الثاني إن شاء الله.

المبحث الثالث

كيف كان الصحابة رضوان الله عليهم يتلقون الحديث عن النبي ﷺ

لم يكن في أصحاب رسول الله ﷺ من يحسن الكتابة إلا نفر قليل، فقد كانت الأمية غالبة عليهم، فكان اعتمادهم في تلقي الحديث عنه ﷺ على استعدادهم في الحفظ على ما سبقَ لكَ آنفاً، كما أنهم نُهُوا عن كتابة الحديث في بدء الأمر خوفَ اختلاطِهِ بالقرآن الكريم. وكان الصحابة يتلقون الحديث عن النبي ﷺ إما بطريق المشافهة، وإما بطريق المشاهدة لأفعاله وتقريراته، وإما بطريق السماع ممن سمع منه ﷺ أو شاهد أفعاله وتقريراته، لأنهم لم يكونوا جميعاً يحضرون مجالسه ﷺ بل كان منهم من يتخلف لبعض حاجاته.

هذا ولما كان عدد الحاضرين للسماع من حضرة النبي ﷺ يختلف قلة وكثرة اختلف لذلك المَرْوِيُّ عنه فبعضه بلغ درجة التواتر وهو ما نقل عنه ﷺ جَمْعٌ يُؤْمَنُ تواطؤهم على الكذب وهذا نوعان:

متواترٌ لفظاً، وهو قليل من الأحاديث كحديث: «من كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار».

ومتواتر معنىً، وهو كثير، ومن ذلك الأحاديث الواردة في أحكام الطهارة

والصلاة والزكاة والصوم والحج والبيوع والنكاح والغزوات مما لم تختلف فيه فرقة من فرق الإسلام.

وبعضه لم يبلغ درجة التواتر وهو الذي يسميه العلماء «خبر الآحاد».

كان الصحابة يحفظون الأحاديث عن ظهر قلب ويبلغونها للناس بطريق المشافهة إلا ما كان من بعض أفراد قلائل كعبد الله بن عمرو بن العاص فقد أذن له النبي ﷺ في كتابة الحديث عنه.

روى الإمام أحمد في «مسنده» عن عبد الله بن عمرو هذا أنه قال: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه، فنهتني قريش، فقالوا: إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله ﷺ ورسول الله بشر يتكلم في الغضب والرضا. فأمسكتُ عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «اكتب فو الذي نفسي بيده ما خرج مني إلا حق».

هذا ولاختلاف الصحابة في معرفة الكتابة وعدم معرفتها وكثرة حضورهم مجالسه ﷺ وقلة حضورهم اختلفوا في تَحَمُّلِ الحديث وأدائه قِلَّةً وكثرةً فكان منهم المُقِلُّ ومنهم المُكْثِرُ. هذا أبو هريرة رضي الله عنه يقول فيما رواه عنه البخاري في كتاب العلم: «ما من أصحاب رسول الله ﷺ أحد أكثر حديثاً عنه مني إلا ما كان من عبد الله بن عمرو فإنه كان يكتب ولا أكتب».

وكما اختلف الصحابة في صفة الأخذ عن رسول الله ﷺ وفي كثرة المروي وقِلَّتِهِ لأسبابٍ أشرنا إليها، كذلك اختلفوا في فقه الحديث حسب اختلافهم في الفهم والاستعداد الفطري، فلم يكونوا سواء في معرفة الناسخ والمنسوخ والعام والخاص

والمطلق والمقيد والمجمل والمفسر ونحو ذلك، إلا أنهم كانوا كثيراً ما يرجعون إلى الرسول ﷺ عندما يقع الاختلاف بينهم فيصدر حكمه الفصل وقضاءه العدل.

أثر النساء في نشر الحديث:

لم تكن مجالسه ﷺ قاصرة على الرجال؛ بل كان كثير من النساء يحضرن المسجد أيضاً ويستمعن إلى حديثه الشريف، وفي الاحتفالات العامة كالاحتفال بصلاة العيد كن يخرجن جميعاً إلى المصلى لاستماع الموعظة النبوية، وكان النبي ﷺ بعد أن يلقي خطبة العيد في الصفوف الأمامية للرجال ينتقل إلى صفوف النساء فيتحدث إليهن ويعلمهن، إلا أن المجالس النبوية بوجه عام كانت الغلبة فيها للرجال دون النساء لذلك جاء وفد النساء إلى رسول الله ﷺ وطلبن إليه أن يجعل لهن يوماً يعلمهن فيه، فكان النبي ﷺ يجيبهن إلى ذلك. على أن هذه الدروس كلها من عامة وخاصة لم تكن قائمة بحوائج النساء الدينية فكثيراً ما كانت تتجدد لهن شؤون لاسيما وهن حديثات عهد بالإسلام، فكانت المرأة تقصد رسول الله ﷺ فيما يَعْرِضُ لها من أمر دينها ولا تستحي أن تسأله لعلمها أنه لا حياء في التعلم وربما قَدَّمَتْ بين يدي سؤالها قولها: «يا رسول الله إن الله لا يستحي من الحق» ثم تذكر حاجتها فتقول ـ كما جاء في البخاري ـ مثلاً (هل على المرأة من غُسْلٍ إذا هي احتلمت) وكثيراً ما يكون ذلك في نساء الأنصار حتى امتدحتهن السيدة عائشة زوج النبي ﷺ بقولها: «نِعْمَ النساء نساء الأنصار لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين». أما من كان يغلب عليها الحياء منهن فكان لها من أمهات المؤمنين أعظم وسيطٍ لدى رسول الله ﷺ يستوضح لها عن جواب سؤالها.

أمهات المؤمنين يُبلِّغن الحديثَ عن رسول الله:

ولا ننس ما لزوجاته ﷺ من فضل كبير في تبليغ أحكام الدين ونشر السنن بين نساء المؤمنين لا سيما ما كان من عائشة رضي الله عنها التي كانت على مقدار عظيم من الذكاء والفهم، فقد كانت تسأله ﷺ وتناقشه في بعض المسائل التي قد تخفى عليها، وتستوضح عن كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية. روى البخاري في كتاب العلم عن ابن أبي مليكة أن عائشة زوج النبي ﷺ كانت لا تسمع شيئاً لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه.

وأن النبي ﷺ قال: «مَنْ حُوسِبَ عُذِّبَ». قالت عائشة. أَوَ ليس يقولُ الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الانشقاق]. قالت: فقال: إنما ذلك العرض ولكن مَنْ نُوقِشَ الحسابَ يهلك.

ولعل من الحِكَم التي لأجلها أباح الله لنبيه ﷺ الزواج بأكثر من أربع قيام هؤلاء الزوجات بالتبليغ عنه ﷺ وبخاصة في الأمور التي لا توجد منه ﷺ بين أصحابه، أو يَستحي من فِعْلِها بينهم، ولا يمكنُ الاطلاع عليها لأحدٍ غير أمهات المؤمنين رضي الله عنهن، لذلك نجد أصحاب رسول الله ﷺ من بعده إذا اختلفوا في شيء من الأحكام كالغسل والحيض والجماع ونحوها يلجؤون إلى أمهات المؤمنين ويرجعون إلى أقوالهن عن رسول الله ﷺ وبذلك يزول ما بينهم من خلاف.

هذا ولا ريب في أن نساءه ﷺ كن على جانب عظيم من العلم فقد أمرهن الله تعالى بالاستقرار في بيوتهن ومدارسة القرآن والسنة في قوله: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ﴿٣٣﴾﴾ إلى أن قال: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ

ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِۚ ﴿٣٤﴾ [الأحزاب].

لذا كان لأمهات المؤمنين أثر فَعَّال في نشر السنة ولولاهن لضاعت أحاديث وأحكام ما كنا لنطلع عليها من غيرهن ولا سيما الأفعال التي تقع بين النبي ﷺ وأزواجه مما لا يمكن لأحد الاطلاع عليها والوقوف على أحكامها.

المبحث الرابع

البعوث والوفود وأثرها في انتشار الحديث النبوي

١ - بعوثه ﷺ وأثرها في نشر الحديث:

بدأت الدعوة المحمدية سراً كما رأيت واستمرت على ذلك ثلاث سنين ثم أمر الله نبيه بأن يجهر بها بعد أن تكونت نواة صالحة من المسلمين. فما كان من قريش إلا أن ناصبوه العداء، واستمر الأمر على ذلك حيناً من الزمان حتى دخل الإسلامَ كثير من أهل المدينة فأمر الله نبيه بالهجرة إليها، فانتقل إليها مع أصحابه، وأصبحت المدينة من ذلك الوقت مهبط الوحي وقاعدة الإسلام، غزا منها النبي ﷺ أعداء الدين، وحَدَّثَ بها أكثر حديثه، إلا أن القتال كان حائلاً دون دخول كثير من القبائل في الإسلام، كما كان مانعاً من وصول الدعوة إلى أطراف الجزيرة، فما إنْ وقعَ صلحُ الحديبية بين النبي ﷺ وأهل مكة حتى أَمِنَ الناسُ بعضَهم بعضاً وجالس بعضهم بعضاً، وتحدثوا في شأن هذا الدين الجديد؛ وفي ظل هذه الهدنة المباركة دخل كثير من العرب في الإسلام، فانتهز النبي ﷺ هذه الفرصة وأرسل كتبه إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، وبعث بعوثه إلى القبائل المسلمة لتعليمهم السنن والأحكام، فبعث منهم إلى اليمن وإلى البحرين وإلى اليمامة وإلى حضرموت وإلى عُمان وغير ذلك من بلاد العرب.

كانت هذه البعوث رُسُلَ رحمة وهداية للناس بما حملوه إليهم من القرآن والسنة

اللذين هما حياة النفوس والأرواح، كما كانت هذه البعوث عاملاً مهما في نشر حديث النبي ﷺ بين المسلمين في أنحاء الجزيرة. وقد كان النبي ﷺ يتخير لهذه المهمة من كان على جانب عظيم في العلم بالقرآن والسنن، وكان يزودهم بحديثه الشريف وإرشاده الحكيم، ويعلمهم كيف يدعون إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

انظر إلى قوله لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن: «إنك تأتي قوماً أهل كتاب فقل لهم: إن الله فرض عليكم في اليوم والليلة خمس صلوات، فإن هم أطاعوك فقل: إن الله فرض عليكم في السنة صومَ شهر رمضان، فإن هم أطاعوك فقل: إن الله فرض عليكم حج البيت من استطاع إليه سبيلاً، فإن أطاعوك فقل: إن الله فرض عليكم في أموالكم صدقة تُؤْخَذُ من أغنيائكم فَتُردّ في فقرائكم» إلخ.

وبطبيعة الحال كان المبعوث يبين أحكام كل ذلك بما سمعه من حديث النبي عليه الصلاة والسلام. وبسبب هذا الهدي النبوي آتت هذه البعوث ثمرتها الطيبة في نشر الحديث الشريف بين ربوع المسلمين.

٢- وفود القبائل إليه ﷺ وأثر ذلك في نشر الحديث:

لما تم لرسول الله ﷺ هذه الانتصارات الباهرة والفتوح المتكاثرة وفرغ من غزوة تبوك، جاءته الوفود من أطراف الجزيرة العربية تضرب إليك أكباد الإبل يَحفزُها الشوقُ إلى لقاء هذا النبي الأمين، ليأخذوا الدين من منبعه الأول، فقد عرفت هذه القبائل أنه لا طاقة لها بحرب محمد ﷺ بعد أن انضوت قريش تحت لواء الإسلام، وقريش هي هي في نظرهم لها الإمامةُ والسيادة، فدخلت هذه القبائل في الدين أفواجاً ووفدوا على رسول الله ﷺ زُرافاتٍ ووحداناً مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ

وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾ [النصر].

جاءت الوفود تَتْرى إلى رسول الله كما جاءته الكتبُ والرسلُ من الملوك تخبره بإسلامهم ومفارقتهم للشرك وأهله، وكلما جاء وفد أكرمه ﷺ وأرشدهم وعَرَّفهم أمرَ دينهم وبَشَّرهم إن هم أطاعوا وحذرهم وأفهمهم بما لهم وما عليهم. وكان قدوم الوفود سنة تسع من الهجرة حتى سميت هذه السنة بسنة الوفود. ولم تكن هذه الوفود تأتي لنيل عطاءٍ، وإنْ كان النبي ﷺ يكرمهم ويعطيهم من مال الله الذي آتاه؛ بل كانوا يأتون إليه فيسألون عن أحكام الإسلام أصوله وفروعه، وكان النبي ﷺ يتحدث إليهم في كل ذلك ويجيبهم على أسئلتهم ويخطب فيهم ويرشدهم ويعلمهم ويوصيهم بتقوى الله والسمع والطاعة.

وإن من يقرأ كتب السيرة النبوية يجد أن وفوداً كثيرة جداً أقبلت عليه ﷺ حتى كأنه لم تبق قبيلة من قبائل العرب إلا قدم منها وفد على رسول الله ﷺ، ولقد عرف الصحابة رضي الله عنهم تلك الوفود وفداً وفداً وحفظوا ما حَدَّثهم به النبيُّ ﷺ من حديث وما خطبهم من خطب وما بَثَّهُ فيهم من مواعظ ونصائح وأحكام وسنن حتى إنك لَتجدُ كتبَ الحديث والسير والمغازي مملوءة بذكر هذه الوفود وما كان لها من أثر عظيم في نشر الدين والسنن سواء ما كان من هذه الوفود في سنة تسع وما كان قبلها.

وهاك بعض الوفود التي أقبلت عليه ﷺ:

١ - وفد بني سعد بن بكر ـ وكان وافدهم إلى النبي ﷺ هو ضمام بن ثعلبة، وفدَ على رسول الله سنة تسع من الهجرة ولما قدم المدينة وجد النبي ﷺ جالساً بين أصحابه

ولا يعرفه. فقال: أيكم ابن عبد المطلب؟ فأشاروا إلى النبي ﷺ، فدنا منه وقال: إني سائلك فَمُشَدِّدٌ عليك في المسألة. قال: سَلْ عما بدا لك. فقال: يا محمد جاءنا رسولك فذكر لنا أنك تزعم أن الله أرسلك، قال: صدق. فقال أنشدك بربِّ مَنْ قَبلكَ ورب من بعدك. قال: اللهم نعم. قال: أنشدك بالله آلله أمرك أن تصلي خمس صلوات في كل يوم وليلة؟ قال: اللهم نعم، قال: فأنشدك بالله آلله أمرك أن تأخذ من أموال أغنيائنا فترده على فقرائنا؟ قال: اللهم نعم، قال: وأنشدك بالله آلله أمرك أن نصوم هذا الشهر من اثنى عشر شهراً؟ قال: اللهم نعم. قال: وأنشدك بالله آلله أمرك أن يحج هذا البيت من استطاع إليه سبيلاً؟ قال: اللهم نعم، قال: فأنا قد آمنتُ وصدقت، وأنا ضمام بن ثعلبة. ثم رجع ضمام إلى قومه فأسلموا جميعاً.

٢- وفد عبد القيس ـ لما قدموا على النبي ﷺ قالوا: يا رسول الله إنا لا نستطيع أن نأتيك إلا في الشهر الحرام وبيننا وبينك هذا الحي من مضر، فَمُرنا بأمرٍ فَصْلٍ نُخبر به من وراءنا وندخل به الجنة، وسألوه عن الأشربة فأمرهم بأربع ونهاهم عن أربع. أمرهم بالإيمان بالله وحده. قال: أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان وأن تُعطوا من المَغْنم الخُمس. ونهاهم عن أربع: عن الحنتم والدُّباء والنقير والمزفَّت.وقال: احفظوهن وأخبروا بهن من وراءكم. رواه البخاري في كتاب الإيمان.

٣- وفد تَجِيب ـ وكانوا ثلاثة عشر رجلاً ساقوا معهم صدقات أموالهم التي فرض الله عليهم فَسُرَّ النبيُّ ﷺ بهم وأكرم مثواهم، وقالوا يا رسول الله: إنا سقنا إليك حق الله في أموالنا فقال لهم: ردوها فاقسموها على فقرائكم، قالوا: يا رسول الله: ما

قدمنا عليك إلا بها فضل عن فقرائنا. قال أبو بكر: يا رسول الله ما قدم علينا وفد من العرب مثل هذا الوفد. فقال عليه السلام: إن الهدى بيد الله عز وجل، فمن أراد به خيراً شرح صدره للإيمان، وجعلوا يسألونه عن القرآن والسنن، فازداد رسول الله ﷺ فيهم رغبة، وأرادوا الرجوع إلى أهليهم، فقيل لهم: ما يعجبكم؟ قالوا: نرجع إلى من وراءنا فنخبرهم برؤية رسول الله ﷺ وتلاقينا إياه وما رد علينا، ثم جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فودَّعوه، فأرسل إليهم بلالاً فأجازهم بأرفع ما كان يجيز به الوفود. ثم قال لهم رسول الله ﷺ هل بقي منكم أحد؟ قالوا: غلام خَلَّفناه على رِحالنا وهو أحدثنا سناً. قال: فأرسلوه، فلما حضر قال: يا رسول الله أنا من الرهط الذين أتوك آنفاً فقضيتَ حوائجهم فاقضِ حاجتي، قال: وما حاجتك؟ قال: تسأل الله عز وجل أن يغفر لي ويرحمني ويجعل غِنايَ في قلبي. فقال رسول الله ﷺ: اللهم اغفر له وارحمه واجعل غناه في قلبه، ثم أمر له بمثل ما أمر به لرجل من أصحابه. ثم إنهم بعد ذلك وافوا رسول الله ﷺ بمنى في الموسم إلا ذلك الغلام، فسألهم ﷺ عنه، قالوا: يا رسول الله؟ ما رأينا مثله قط ولا حُدِّثنا بأقنعَ منه بما رزقه الله. لو أن الناس اقتسموا الدنيا ما نظر نحوها ولا التفت إليها. فقال النبي ﷺ: الحمد لله إني لأرجو أن يموت جميعاً. فقال رجل منهم: أو ليس يموت الرجل جميعاً يا رسول الله؟ فقال النبي ﷺ: «تشعب أهواؤه وهمومه في أودية الدنيا، فلعل الأجل يدركه في بعض تلك الأودية فلا يبالي الله عز وجل في أيها هلك».

من هذا ترى أن الوفود كانت تقدم على رسول الله ﷺ لتنهل من معين العلم ولتتفقه في دين الله على أحكام الإسلام، ثم يرجعون إلى أوطانهم يعلمون من وراءهم من قبائلهم وعشائرهم. فهذه الوفود إلى جانب البعوث التي كان يرسلها النبي ﷺ إلى

القبائل والملوك كان لها أكبر الأثر في نشر السنة النبوية في أنحاء الجزيرة العربية.

حجة الوداع وأثرها في نشر الحديث:

هذا ولما استتب لرسول الله ﷺ الأمر في الجزيرة قصد حج بيت الله الحرام، وقد حج معه من المسلمين أربعون ألفاً، فألقى فيهم النبي ﷺ خطبة عظيمة جمع فيها أحكاماً غزيرة وسنناً كثيرة، ووضع من آثار الجاهلية ما أبطله الإسلام. ولكثرةالناس في ذلك اليوم اتخذ ربيعةَ بن أمية بن خلف مُبَلِّغاً عنه. وافتتح هذه الخطبة بعد حمد الله بقوله: «أيها الناس اسمعوا قولي، فلعلِّي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً».

وهي خطبة طويلة بَيَّنَ للناس فيها مناسك الحج وكأنه عليه السلام كان يشعر بدنو أجله فلم يترك شيئاً لم يكن بَيَّنَهُ للناس إلا بينه وأظهره. فكانت هذه الخطبة الحافلة في هذا الجمع الحاشد من أكبر العوامل في ذيوع السنن الكثيرة بين قبائل العرب وعشائرهم، وهي كمنهاج ختامي للدعوة الإسلامية عامة ولحديث رسول الله ﷺ خاصة، وقد نزل في هذا الوقت قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ۝٣﴾ [المائدة].

الدور الثاني
السنة في زمن الخلافة الراشدة

وفيه مباحث:

المبحث الأول: وصف الحالة السياسية لهذا العهد.

المبحث الثاني: منهج الصحابة في رواية الحديث.

أ- أمرهم بتقليل رواية الحديث.

ب- تثبتهم في رواية الحديث.

ج- منعهم الناس من التحديث بما يعلو على مدارك العامة.

المبحث الأول

وصف الحالة السياسية لهذا العهد

قُبِضَ رسولُ الله ﷺ ولم يوصِ بالخلافة لأحدٍ من أصحابه فوقع بين المهاجرين والأنصار النزاع فيمن تكون الخلافة أفي المهاجرين أم في الأنصار، فاجتمعوا يوم السقيفة فأقنعهم أبو بكر بأن الخلافة في المهاجرين أول الناس إسلاماً. فتقدم عمر بن الخطاب وبايع أبا بكر الصديق وتوافد الناس على بيعته وتم الأمر وقضي على الخلاف في مهده.

وما إن تقلد أبو بكر الخلافة حتى اشْرَأَبَّ النفاقُ بالمدينة وارتد كثير من القبائل عن الإسلام ومنع بعضهم الزكاة. فنشط أبو بكر لحربهم وتأهب لقتالهم فقالوا: نصلي ولا نؤدي الزكاة، فقال الناس: اقبلْ منهم يا خليفةَ رسول الله فإن العهدَ حديث والعرب كثير ونحن شرذمة قليلون ليس لنا طاقة بهم، وقد قال رسول الله: أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله، فقال أبو بكر: هذا من حَقِّها لابد من القتال، وكان على رأيهم عمر بن الخطاب، فلم يقبل منه أبو بكر وقال له كلمته المشهورة: «أَجَبَّارٌ في الجاهلية خَوَّارٌ في الإسلام يا ابن الخطاب، والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه، ولو لم أجد أحداً أقاتلهم به لقاتلتهم وحدي حتى يحكم الله بيني وبينهم

وهو خير الحاكمين» فشرح الله صدورهم لرأي أبي بكر.

سار أبو بكر رضي الله عنه في طريقه لا يهن ولا يلين، فقاتل بمن أطاعه مَنْ عصاه وضرب من أدبر منهم بمن أقبل حتى أصاخوا جميعاً لحكم الله ودخلوا الإسلام طوعاً وكرهاً، وأدوا زكاة أموالهم إلى بيت مال المسلمين. فانتظم أمر الإسلام وحمد الناس لأبي بكر رأيه وعرفوا له مكانته وفضله.

واستمر الأمر على هذا الحال زمن الشيخين وصدرا من خلافة عثمان رضي الله عنهم هدوء واستقرار في جميع نواحي الحياة سياسية كانت أم اجتماعية فاستكمل صغار الصحابة علومهم الدينية وتحمل كثير من التابعين الحديث والأحكام وفتاوى الصحابة وأقضيتهم.

ثم لما أخذ الناس على عثمان رضي الله عنه أموراً قد يكون فيها معذوراً دخل في الدين قوم من اليهود التحفوا بالإسلام ولم يتبطنوه وكان على رأسهم ذلك الطاغية المدعو بعبد الله بن سبأ اليهودي الحميري. جعل هذا الخبيث ينفخ في بوق الفتنة ويؤلب الناس على عثمان في مختلف الأقطار حتى كان ما كان من قتل الخليفة في بيته ظلماً بتلك الأيدي الأثيمة. ومن ذلك الحين انفتح على المسلمين باب شر عظيم ودب فيهم داء الخلاف الذي أطاح برؤوس الكثير من أصحاب رسول الله ﷺ. فما كاد الخليفة الرابع علي بن أبي طالب يتولى الخلافة حتى قام معاوية يطالب بدم عثمان فوقعت بينهما حروب مزقت المسلمين وفرقت كلمتهم وانتهت بمعركة صفين التي كان على أثرها انشقاق أصحاب علي إلى خوارج وشيعة. فاستغل هذا النزاع طوائف من الأمم المغلوبة على أمرها من يهود وفرس وغيرها وأخذوا يكيدون للإسلام ما استطاعوا.

المبحث الثاني

منهج الصحابة في رواية الحديث

طالما كان النبي ﷺ بين ظهراني أصحابه يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم كانوا سعيدين به في أمر دينهم ودنياهم، فلم يعد هناك خوف على حديث رسول الله ﷺ من أعمال المنافقين ودجل الكذابين، فالوحي ما دام يتنزل على نبي الله يفضح أمرهم ويكشف سرهم والسنةُ في أمنٍ من عبثهم وكيدهم ﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴿٦٤﴾ ﴾ [التوبة] كما أنه لم يكن هناك مجال لنقد الحديث وروايته بدون الرجوع إلى صاحب الرسالة، فقد كانوا إذا جَدَّ بينهم خلافٌ لجأوا إلى حضرة النبي ﷺ كما أمرهم الله بذلك: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴿٥٩﴾ ﴾ [النساء].

هذا عمر بن الخطاب يسمع هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان على غير ما يقرؤها هو فَيَلُبُّه بردائِهِ، ثم يأتي به الرسول ﷺ ويقول له: هذا يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرأتنيها، فيأمر النبي ﷺ هشاماً بالقراءة ويقول: هكذا أُنزلت، ثم يأمر عمر بالقراءة، ويقول: هكذا أُنزلت، ثم يقول: إن هذا القرآن أُنزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ما تيسر منه. والحديث مروي في البخاري وغيره، إلى غير ذلك من الأمثلة والحوادث التي كان النبي ﷺ يقضي فيها على النزاع أو يصحح فيها الرواية عنه.

ومن ذلك نرى أن حياته عليه الصلاة والسلام كانت قاضية على الخلاف إذا نَشَبَ والشَّكِّ إذا عَرضَ بل والخاطرِ إذا هَجَسَ.

فلما قُبض رسولُ الله ﷺ لم يعد هناك حارس للسنة إلا صدور الصحابة، فقد انقطع الوحي واشرأب النفاق وارتد كثير من العرب ومنع بعضهم الزكاة فلا نعجب إذن من منافقٍ يُملي عليه نفاقه أن يكذب على رسول الله، ولا نعجب من بعض الأعراب ـ الذي يدعي أن رسالة محمد تنتهي بموته ـ أن يعبث بحديث رسول الله، ولكن أبا بكر وقف وقفة الحِيطةِ والحذر، فكما قَلَّمَ أظفارَ المرتدين ومانعي الزكاة، كذلك سَدَّ الباب في وجوه الكذابين بما وضعه من قوانين الرواية، وجاء عمر من بعده سائراً على نهجه فأرهب الكذابين وخوف المُكْثرين. وإليك طرفاً من تلك الأعمال الجليلة.

(أ) أمر الصحابة بتقليل الرواية:

نظر الخلفاء الراشدون وتَابَعهم سائرُ الصحابة إلى السنة الشريفة فألفوها كنوزاً ثمينة في صدور الذين أوتوا العلم فلم يشاؤوا أن يعرضوها في سوق الرواية لئلا يتخذ المنافقون من شيوع الحديث عن رسول الله ﷺ ذريعة للتزيد فيه وسلماً لتزييف الحديث عن رسول الله ﷺ ولئلا تَزِلَّ بالمُكْثرين أقدامهم فيسقطوا في هُوَّةِ الخطأ والنسيان فيكذبوا على رسول الله ﷺ من حيث لا يشعرون، كما كرهوا أن يشتغل الناس برواية الحديث وينصرفوا عن تلاوة القرآن ولـمَّـا يَتيسَّر حفظه لكثير منهم، لذلك نجدهم قد أنفقوا من السنة بقدر حسب ما يَعنُّ لهم من مسائل الفتوى والقضاء.

فهذا أبو بكر الصديق رضي الله عنه ـ على كثرة سماعه من رسول الله ﷺ ـ يقلل

من رواية الحديث، وهذا عمران بن حصين، وهذا أبو عبيدة، وهذا العباس بن عبد المطلب، وغيرهم كلهم يُقِلُّون الرواية حتى أن سعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين بالجنة لم يرو له إلا حديثان أو ثلاثة، وهذا أُبيٌّ بن عمارة لم يرو له إلا حديث واحد في المسح على الخفين.

وهذا أبو هريرة يمسك عن التحديث في زمن عمر بن الخطاب مع أنه معدود في المكثرين من الصحابة لرواية الحديث ولكنه اتباعاً لسنة الشيخين في التقليل من الرواية يَكُفُّ عنها، ثم لما طالت به الأيام واحتيج إلى ما عنده من العلم حَدَّثَ به وأظهره للناس.

روى البخاري عن أبي هريرة أنه قال: إن الناس يقولون أكثر أبو هريرة ولولا آيتان في كتاب الله ما حدثتُ حديثاً، ثم يتلو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩﴾ حتى يبلغ قوله تعالى: ﴿وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٠﴾ [البقرة] إن إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصَّفقُ في الأسواق، وإن إخواننا من الأنصار كان يشغلهم العمل في أموالهم. وإن أبا هريرة كان يلزم رسولَ الله ﷺ بشبع بطنه ويحضر ما لا يحضرون ويحفظ ما لا يحفظون «وإنما اشتد إنكارهم على أبي هريرة لأنه صحب النبي ﷺ ثلاث سنين وأتى من الرواية عنه ما لم يأتِ به أحدٌ من السابقين الأولين. فلما أخبرهم بأنه كان ألزمهم لرسول الله ﷺ وأنه لم يشغله عن مجالسته تجارة ولا بيع ولا زرع ولا غرس فحفظ ما لم يحفظوا سكتوا عنه.

ومع ذلك فقد كان أبو هريرة يمسك عن التحديث زمن عمر الذي كان شديداً

على الرواة حذراً من خطر الإكثار. فقد قيل لأبي هريرة: أكنت تحدث في زمن عمر هكذا؟ قال: لو كنت أحدث في زمان عمر مثل ما أحدثكم لضربني بمخفقته».

كان عمر بن الخطاب يأمر الناس بتقليل الرواية وكان مهيباً عند جميع الصحابة. روى الشعبي عن قرظة بن كعب أنه قال: خرجنا نريد العراق فمشى معنا عمر إلى صرار فتوضأ فغسل اثنتين ثم قال: أتدرون لم مشيت معكم؟ قالوا: نعم نحن أصحاب رسول الله ﷺ مشيت معنا. فقال: إنكم تأتون أهل قرية لهم دوي بالقرآن كدوي النحل فلا تصدوهم بالأحاديث فتشغلوهم، جَوّدُوا القرآنَ وأَقِلُّوا الرواية عن رسول الله ﷺ امضوا وأنا شريككم. فلما قدم قرظة، قالوا: حدثنا، قال:نهانا عمر بن الخطاب. وإنما ذكرنا هذه الرواية على فرض صحتها وإلا فقد طعن فيها ابن عبد البر.

وهذا عبد الله بن الزبير يسأل الزبير: إني لا أسمعك تحدث عن رسول الله ﷺ كما يحدث فلان وفلان، فيقول له: أما إني لم أفارقه ولكن سمعته يقول: «من كذب عليَّ فليتبوأ مقعده من النار».

وهذا زيد بن أرقم يقال له: حدثنا فيقول: كبرنا ونسينا والحديث عن رسول الله ﷺ شديد.

والسائب بن يزيد يقول: صحبت سعد بن مالك من المدينة إلى مكة فما سمعته يحدث عن النبي ﷺ حديثاً واحداً.

والشعبي يقول: جالست ابن عمر سنة فما سمعته يحدث عن رسول الله شيئاً.

وكان أنس بن مالك يتبع الحديث عن النبي ﷺ بقوله: «أو كما قال» حذراً من الوقوع في الكذب عليه.

من هذه الآثار ـ وغيرها كثير ـ تجد أن الصحابة وقفوا على حذر في شأن الحديث فأقلوا من الرواية خشية أن يتخذها المنافقون مطية لأغراضهم الخبيثة ولغير ذلك مما سبق وهم مع ذلك واقفون عند قوله ﷺ: «إياكم وكثرة الحديث، ومن قال عني فلا يقولن إلا حقاً» [1]. واقفون عند سنة الخلفاء الراشدين المهديين كما أمرهم النبي ﷺ «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين».

(ب) تثبت الصحابة في رواية الحديث:

وكما أشار الصحابة بالإقلال من رواية الحديث وأمسكوا عن الإكثار منها كذلك ساروا على منهاج التثبت في الراوي والمروي مستضيئين في ذلك بكتاب الله مسترشدين بما تواتر أو اشتهر من سنة رسول الله، فأخذوا الحديث بحيطة بالغة وحذر شديد. فما اطمأنت قلوبهم إليه من الحديث بأنْ كان متواتراً أو مشهوراً أو آحاداً لم يكن في رواته مَنْ يُشَكُّ في حِفْظِهِ وضبطه قبلوه وعملوا به ولم يطلبوا عليه شهيداً ولا دليلاً. وما وقع فيه شك طلبوا عليه ظهيراً. وما لم تَقُم البَيِّنَةُ على صِدْقهِ مما وقع فيه الشك أو كان مخالفاً لكتاب الله ردوه على قائله.

ونحن ذاكرون لك طرفاً من الروايات توضح ذلك.

١ - روى الحافظ الذهبي في «تذكرة الحفاظ» في ترجمة أبي بكر الصديق قال: كان أول من احتاط في قبول الأخبار، فروى ابن شهاب عن قبيصة أن الجدة جاءت إلى أبي بكر تلتمس أن تُورثَ. قال: ما أجدُ لكِ في كتاب الله شيئاً. وما علمتُ أن رسول الله ﷺ ذكر لكِ شيئاً. ثم سأل الناس، فقام المغيرة فقال: كان رسول الله ﷺ يعطيها

(١) رواه أحمد والحاكم وابن ماجة.

السُّدُسَ. فقال له: هل معك أحد؟ فشهد محمد بن مسلمة بمثل ذلك، فأنفذه لها أبو بكر رضي الله عنه.

٢- وروي في ترجمة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قال: وهو الذي سَنَّ للمحدثين التثبت في النقل، وربما كان يتوقف في خبر الواحد إذا ارتاب.

روى الجريري عن أبي نضرة عن أبي سعيد أن أبا موسى سلم على عمر من وراء الباب ثلاث مرات. فلم يؤذن له، فرجع فأرسل عمر في أثره فقال: لم رجعت؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا سلم أحدكم ثلاثاً فلم يُجَبْ فليرجع» قال: لتأتيني على ذلك بِبَيِّنَةٍ أو لأفعلن بك. فجاءنا أبو موسى منتقعاً لونه ونحن جلوس، فقلنا: ما شأنك؟ فأخبرنا، وقال: فهل سمع أحد منكم؟ فقلنا: نعم كُلُّنا سمعه فأرسلوا معه رجلاً منهم فأخبره.

٣- وروي الذهبي أيضاً عن هشام عن أبيه عن المغيرة بن شعبة أن عمر استشارهم في أملاص المرأة ـ يعني السقط ـ فقال المغيرة: قضى فيه رسول الله ﷺ بِغُرَّة[1]. فقال له عمر: إنْ كنتَ صادقاً فأتِ واحداً يعلم ذلك. قال: فشهد محمد بن مسلمة أن رسول الله ﷺ قضى به.

٤- وروى الذهبي أيضاً أن عمر قال لأبي ـ وقد روى له حديثاً ـ لتأتيني على ما تقول بينه، فخرج فإذا ناس من الأنصار. فذكر لهم، قالوا: قد سمعنا هذا من رسول الله ﷺ. فقال عمر أما إني لم أتهمك، ولكن أحببتُ أن أَتَّثَبتَ.

٥- وفي ترجمة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب يروي الذهبي عن أسماء بن الحكم

---

(١) الغرة بضم الغين وتشديد الراء المفتوحة هي عند الجمهور ما بلغ نصف عشر الفدية.

الفزاري أنه سمع علياً يقول: كنت إذا سمعت من رسول الله حديثاً نفعني الله بما شاء أن ينفعني به، وكان إذا حدثني غيره استحلفته فإذا حلف صدقته. وحدثني أبو بكر ـ وصدق أبو بكر ـ قال سمعتُ النبي ﷺ يقول: «ما من عبد مسلم يذنب ذنباً ثم يتوضأ ويصلي ركعتين ثم يستغفر الله إلا غفر الله له».

٦- وهذه عائشة أم المؤمنين ترد حديث رؤية النبي ﷺ لربه ليلة المعراج بظاهر قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام] وتقول: من زعم أن محمداً رأى ربه ليلة الإسراء فقد أَعظمَ على الله الفِرية.

وهذا اجتهاد منها رضي الله عنها وقد خالفها بعض العلماء في ذلك وتأولوا الآية على معنى: لا تحيط به الأبصار وبذلك لا تتنافى الآية مع الحديث ـ وكما كان لعائشة رضي الله عنها نظرة في متن الحديث حيث تنقده بعرضه على القرآن، كذلك كان لها نظرة في الراوي فكانت تختبر حفظه لتقف على مبلغ ضبطه للحديث.

جاء في الصحيحين عنها أنها قالت لعروة بن الزبير يابن أختي بلغني أن عبد الله بن عمرو مارٌّ بنا إلى الحج، فالقه فاسأله فإنه قد حمل عن النبي ﷺ كثيراً، قال: فلقيته فسألتُه عن أشياء يذكرها عن النبي ﷺ، قال عروة: فكان فيما ذكر أن النبي ﷺ قال: «إن الله لا ينزع العلم من الناس انتزاعاً ولكن يقبض العلماء فيرفع العلم معهم. ويبقى في الناس رؤوس جُهَّال يُفتونهم بغير علم فيضلون ويضلون» قال عروة: فلما حدثت عائشةُ بذلك أَعظمتْ ذلك، وأنكرته، قالت: أحدثك أنه سمع رسول الله ﷺ يقول هذا؟ قال عروة: نعم، حتى إذا كان عامٌ قابلٌ قالت لي: إن ابن عمرو قد قدم فالقه ثم فاتحه حتى تسأله عن الحديث الذي ذكره لك في العلم، قال: فلقيتُه فسألته فذكر لي نحو

ما حدثني به في المرة الأولى. قال عروة: فلما أخبرتها بذلك، قالت: ما أَحسبهُ إلا قد صَدَقَ أراه لم يَزِدْ فيه شيئاً ولم ينقص. أ هـ من «إعلام الموقعين» (١ - ٤٣).

فهذا من عائشة رضي الله عنها اختبارٌ لحفظِ عبد الله بن عمرو فأول مرة تَشكَّكتْ في ضبطه، ثم لما وجدته في المرة الثانية لم يزد في الحديث حرفاً ولم ينقص، وقد مضى على ذلك عام كامل علمت أنه حافظٌ للحديث جيد الضبط، فصدقته وقبلت حديثه.

وهذه الآثار ـ وغيرها كثير ـ تدل دلالة واضحة على أن الصحابة كانوا يتثبتون في أمر الحديث ويَزِنُونَ الراوي والمروي بميزان النقد العلمي الصحيح، وهذا أمر طبيعي بعد أن لحق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى، فقد كان في حياته يكفيهم هذه المهمة كما أشرنا من قبل.

(ج) منع الصحابة الرواة من التحديث بما يعلوا على فهم العامة:

تقدم لك الإشارة إلى أن النبي ﷺ كان يخص بنوع من العلم مَنْ يرى عليه أثَرَ النبوغ والفهم من الصحابة، وكان يمنعهم من أن يحدثوا العامة بذلك خشية ألا يفهموه فيفتتنوا.

روى البخاري في كتاب العلم من صحيحه أن النبي ﷺ كان راكباً ومعاذ رديفُه على الرحل، فقال: يا معاذ بن جبل، قال: لبيك يا رسول الله وسعديك: قال ما مِنْ أحد يشهدُ أن لا إله إلا الله صِدقاً من قلبه إلا حرمه الله على النار. قال معاذ: يا رسول الله أفلا أخبرُ الناسَ فيستبشروا؟ قال: إذن يَتَّكِلُوا. وأخبر بذلك معاذ عند موته تجنباً لإثم كتمان العلم.

وهذا عمر بن الخطاب يرد أبا هريرة ـ وقد أمره النبي ﷺ أن يبشر الناس بمثل مافي حديث معاذ ـ ويقول: ارجع يا أبا هريرة، ويدخل عمر من فوره على النبي ﷺ يقول له: يا رسول الله أنتَ قلتَ لأبي هريرة كذا وكذا؟ فقال له النبي ﷺ: نعم، فقال عمر: لا تفعلْ فإني أخشى أن يتكل الناس فَخَلِّهم يعملون، وقد أقره النبي ﷺ على ذلك وقال فخلهم. رواه مسلم في كتاب الإيمان.

وروى في مقدمة صحيحه عنه ﷺ أنه قال: «كفى بالمرء كذباً أن يُحدِّثَ بكل ما سمع» وذلك لأن تحديثَ العامة بكل شيء ـ ومعلوم أن عقولهم لا تهضم كل شيء ـ مَدْعاةٌ إلى تكذيبهم للمحدث فيما لا يفهمونه وبذلك تضيع ثقتهم به، ولعلَّهم إنْ لم يكذبوه وعملوا بما فهموا تركوا بعض الأحكام الشرعية وكان هو كالكاذب على الله ورسوله، فقد صرفهم عن العمل بأحكام الدين بسبب تحديثهم بما يعلو على أفهامهم وكفى بذلك كذباً. بل نقول إن تحديث العامة بما يعلو على أفهامهم مدعاة لارتيابهم في الدين نفسه ولهذا قال ابن عباس: «حَدِّثُوا الناسَ بما يعرفون، أتريدون أن يُكَذَّبَ اللهُ ورسوله».

هذا وقد سار الصحابة على هذا الهدي النبوي في ذلك العصر فامتنعوا عن التحديث بما لا تدركه عامة الناس خشية أن يفتنوا فيتركوا بعض الفرائض الدينية.

يروي مسلم في مقدمة صحيحه عن ابن مسعود أنه قال: «ما أنت مُحَدِّثٍ قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة».

ويروي البخاري عن أبي هريرة أنه كان يقول: «حفظت عن رسول الله ﷺ وعاءين؛ فأما أحدهما فَبَثَثْتُه، وأما الآخر فلو بثثته قُطعَ هذا البلعوم».

ويروى عن علي أيضاً: «حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يُكذَّبَ اللهُ ورسوله».

وروى ابن عبد البر مثل ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما، وما زال الصحابة والتابعون والأئمة من بعدهم يكرهون التحديث بما يكونُ مثارَ فتنٍ وقلاقل بسبب قصور بعض الناس في الفهم أو استغلال أصحاب الأهواء والسلاطين ظاهرَ النصوص لتأييد بدعهم وتسويغ ظلمهم وغشمهم.

ولقد أنكر الحسن البصري تحديث أنس للحجاج بقصة العرنيين لأنه اتخذها وسيلة إلى ما كان يفعله من المبالغة في سفك الدماء، ولا حجةَ له في ذلك سوى تأويلاته الواهية. وهذا أحمد بن حنبل يكره التحديث ببعض الأخبار التي يكون ظاهرها الخروج على الأمير، وهذا أبو يوسف يكره التحديث بالغرائب، وكان ذلك منهم رضي الله عنهم محافظة على سلامة الدين من أصحاب الأهواء وسلامة الأمة من أهل الشغب والفتن، فكثيراً ما تعلل المبطلون والإباحيون بظواهر أحاديث غير مُرادة، فتحللوا من أحكام الإسلام وخرجوا إلى صريح الكفر من حيث يشعرون أو لا يشعرون. وكثيراً ما يوجد ذلك في أقوام ينصبون أنفسهم دعاة للدين سواء أكانوا مغرضين، أم غير مغرضين وصدق القائل: وآفةُ الأديان من جهلِ الدعاة..

لذلك أمسك الصحابة عن التحديث بما يكون ذريعة للتقصير والتهاون بسبب قصور النظر أو يكون سلما لأهل الأهواء والبدع ومن هو على شاكلتهم حتى لا تكون فتنة في الأرض وفساد كبير [1].

---

(١) فتح الباري (١ - ١٦٠)

الدور الثالث

السنة بعد الخلافة الراشدة إلى نهاية القرن الأول

وفيه مباحث:

المبحث الأول: اتساع الفتوح الإسلامية وتفرق الصحابة في الأمصار.

المبحث الثاني: رحلة العلماء في طلب العلم.

المبحث الثالث: ظهور الكذب في الحديث ومناهضة العلماء الكذابين.

المبحث الرابع: كتابة الحديث.

المبحث الخامس: تراجم لبعض مشاهير الرواة والصحابة رضوان الله عليهم.

المبحث السادس: الردّ على شبهة وردت على عدالة الصحابة رضوان الله عليهم وضبطهم لرواية الحديث.

المبحث السابع: تراجم لبعض رواة الحديث من التابعين.

المبحث الثامن: الرد على شُبَهٍ وردت على رواية الحديث وكتابته في القرن الأول.

المبحث الأول

اتساع الفتوح الإسلامية وتفرق الصحابة في الأمصار

اتسعت الفتوحات الإسلامية بعد وفاته ﷺ اتساعاً عظيماً على يد أصحابه تحقيقاً لوعد الله الذي لا يتخلف: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ (٥٥) ﴾ [النور]. فقد فتح الشام كله والعراق بأكمله في سنة سبع عشرة هجرية. وفتحت مصر سنة عشرين من الهجرة. وفُتحت فارس سنة إحدى وعشرين. ووصل المسلمون سمرقند سنة ست وخمسين وفُتحت إسبانيا سنة ثلاث وتسعين.

هذا وكان على أثر هذه الفتوح أن دخل كثير من أهلها الإسلام وتعطشت نفوسهم إلى تعلم أحكامه فكان لزاماً على خلفاء المسلمين أن يبعثوا إليهم من يعلمهم من أصحاب رسول الله ﷺ أحكام دينهم، على أن كثيراً من الصحابة نزحوا إلى تلك الأمصار المختلفة من تلقاء أنفسهم معلمين ومرشدين، ومنهم من طاب له المقام فاستوطن البلد الذي نزله حتى المات.

وبنزول الصحابة في تلك البلدان المختلفة أصبحت معاهد لتعليم القرآن والحديث يجتمع عليهم طلاب العلم يغترفون من بحارهم الفياضة ويحفظون عنهم ما حفظوه عن رسول الله ﷺ حتى تخرج على أيديهم في كل قطر طبقة من التابعين كانوا فيما

بعد حماة السنة ورواة الحديث، ولا يَقعنَّ في خاطرك أنه كان هناك مدارس ومعاهد بالمعنى المعروف عندنا الآن، ذات نُظُمٍ خاصة ومكتبات وقاعات للمحاضرات وما إلى ذلك، بل كان القوم على البساطة الأولى، فقد كان الصحابي يحمل علمه في صدره ويعيه بقلبه، وكانت المساجد في الغالب هي دور العلم ومعاهد الحديث يجلس الصحابي في المسجد وحوله حلقة من أتباعه وتلاميذه يستمعون له ويحفظون عنه ويسألونه ويستفتونه، وهو في كل ذلك لا يخرج عن كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ أو الرأي المستند إلى أصل صحيح منهما وقلما يكون ذلك. ولا بأس أن نذكر نبذاً عن دور الحديث بالأقطار المختلفة فنقول:

دور الحديث في الأمصار المختلفة:

١ - دار الحديث بالمدينة المنورة:

كانت المدينة المنورة هي مُهاجَرَ النبيِّ ﷺ وأصحابه وبها حَدَّثَ النبي ﷺ أكثر حديثه لأن أكثر التشريع الإسلامي كان بها. وكان المهاجرون يحبون المقام بها ويكرهون التحول عنها إلى مكة أو غيرها. وما زالت المدينة بعد وفاته ﷺ هي عاصمة الأمة الإسلامية ومركز الخلافة الراشدة ومقر كبار الصحابة، لذلك كانت المدينة هي موطن الصحابة الأول، الذي يفضلونه على غيره حيث يصيبون من بركة النبي ﷺ في حياته وبعد وفاته، وكانوا لا يبرحونها إلا لحاجةٍ مُلِحة حكومية أو معاشية أو تعليمية.

روى ابن سعد في «الطبقات» عن محمد بن عمر أنه قال: لا نعلم أحداً من المهاجرين من أهل بدر رجع إلى مكة ـ يعني بعد وفاة النبي ﷺ ـ فنزلها غير أبي سبرة، فإنه رجع إلى مكة بعد وفاة النبي ﷺ فنزلها فكره ذلك له المسلمون، وولده ينكرون

ذلك ويدفعون أن يكون رجع إلى مكة، فنزلها بعد أن هاجر منها، ويغضبون من ذكر ذلك.

وقد اشتهر بالمدينة من الصحابة الذين كانت لهم قدم في الحديث والفقه عدد كثير منهم: أبو بكر، وعمر، وعلي قبل انتقاله إلى الكوفة وأبو هريرة، وعائشة أم المؤمنين، وعبد الله بن عمر، وأبو سعيد الخدري، وزيد بن ثابت الذي اشتهر بفهم الأحكام من الكتاب والسنة والرأي السديد حتى أن عمر كان يستبقيه للاستئناس برأيه فيما يعرض له من القضايا، وقد استمر زيد مترئساً على القضاء والفتوى والقراءة والفرائض زمن عمر وعثمان وعلي إلى أن مات سنة ٤٥ في خلافة معاوية رضي الله عنهم.

هذا وقد تخرج على أيدي هؤلاء الأفاضل الفوج الأول من التابعين لهم بالمدينة ومن أشهر هؤلاء: سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير بن العوام، وابن شهاب الزهري، وعبيد الله بـن عبد الله بن عتبة بن مسعود، وسالم بن عبد الله بن عمر، والقاسم بن محمد بن أبي بكر، ونافع مولى ابن عمر وغير هؤلاء من حفاظ السنة الذين كان إليهم المرجع في الحديث والفتوى.

٢- دار الحديث بمكة المكرمة:

لما فتح النبي ﷺ مكة خَلَّفَ بها معاذ بن جبل يعلم أهلها الحلال والحرام ويفقههم في الدين ويقرئهم القرآن الكريم، وكان معاذ من أفضل شباب الأنصار علماً وحلماً وسخاء. شهد مع رسول الله المشاهد كلها، وكان يعد من أعلم الصحابة بالحلال والحرام. وقد روى عنه ابن عباس وعمر وابنه، وأخيـراً تزعم دار الحديث بمكة عبد

الله بن عباس بعد رجوعه من البصرة، وإليه يرجع الفضل فيما كان لمكة من شهرة علمية، فقد كان عبد الله من أوعية العلم وحفاظ الحديث، وكان بها كثير من الصحابة غيره ذكر منهم الحاكم في كتابه «معرفة علوم الحديث» جملة وافرة. فمنهم عبد الله بن السائب المخزومي قارئ الصحابة بمكة، وعتاب بن أسيد خليفة رسول الله ﷺ عليها، وأخوه خالد بن أسيد، والحكم بن أبي العاص، وعثمان بن طلحة وغيرهم.

وقد تخرج بهذه الدار على يد عبد الله بن عباس كثير من التابعين من أشهرهم: مجاهد بن جبر، وعكرمة مولى ابن عباس، وعطاء بن أبي رباح وغيرهم.

هذا ولا تنس ما لمكة والمدينة من أثر كبير امتازتا به على جميع بلدان العالم حتى في عصرنا الحاضر ففيهما ينعقد هذا المؤتمر الإسلامي في كل عام ويأتي إليه المسلمون من كل فج عميق، ولا يخفى ما لهذا الاجتماع من أثر كبير في نشر العلوم والمعارف إذ يلتقي فيه رواة الحديث وحملة العلم بعضهم ببعض يعرضون الأحاديث وينقحون الأسانيد فيستكمل الراوي علمه بالحديث ورجاله.

ولقد كان الحج من أعظم الروابط والصلات التي تربط الأقطار الإسلامية بالحياة العلمية في هذين البلدين، إلا أن ذلك لم يكن ليسد حاجة هذه الأقطار الواسعة، لذلك نزح كثير من الصحابة إليها هُداةً ومُعلِّمين.

٣- دار الحديث بالكوفة:

كانت الكوفة هي قاعدة الجيوش الإسلامية، لذلك نزل بها عدد كبير من الصحابة زمن الفتوح وأكثرهم دفن بها. منهم: علي، وعبد الله بن مسعود، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، وخباب بن الأرت، وسلمان الفارسي، وحذيفة بن اليمان،

وعمار بن ياسر، وأبو موسى الأشعري، والبراء بن عازب، والمغيرة بن شعبة، والنعمان بن بشير، وأبو الطفيل، وأبو جحيفة، وكثير جداً غيرهم. (علوم الحديث للحاكم ص١٩١).

وقد كانت الزعامة في هذه الدار إلى عبد الله بن مسعود لكثرة علمه وطولُ مُكْثِهِ بها فتخرج على يديه كثير من أصحابه من أشهرهم: مسروق بن الأجدع الهمداني، وعبيدة بن عمرو السلماني الذي قال فيه الشعبي: كان يوازي شريحاً في القضاء، والأسود بن يزيد النخعي، وشريح بن الحارث الكندي الذي استقضاه عمر على الكوفة ولم يزل قاضياً عليها حتى زمن الحجاج، ثم استقال قبل موته بسنة، وإبراهيم بن يزيد النخعي فقيه العراق، وسعيد بن جبير، وعامر بن شراحيل الشعبي علامة التابعين وكان إماماً حافظاً. إعلام الموقعين (١-٢٠).

٤- دار الحديث بالبصرة:

زعيم هذه الدار هو أنس بن مالك ﷺ، وقد نزلها كثير من الصحابة غيره منهم: ابن عباس ـ وكان والياً عليها من قبل علي، وعتبة بن غزوان، وعمران بن حصين، وأبو برزة الأسلمي، ومعقل بن يسار، وأبو بكرة، وعبد الرحمن بن سمرة، وعبد الله بن الشخير، وجارية بن قدامة وغيرهم (علوم الحديث للحاكم ص ١٩١).

وقد تخرج بهذه الدار من التابعين: أبو العالية رفيع بن مهران الرياحي، والحسن البصري، وأدرك خمسمائة من الصحابة ومحمد بن سيرين، وأبو الشعثاء جابر بن زيد صاحب ابن عباس، وقتادة بن دعامة السدوسي، ومطرف بن عبد الله بن الشخير، وأبو بردة بن أبي موسى، وغير هؤلاء كثير.

٥- دار الحديث بالشام:

لما فتح المسلمون الشام دخل كثير من أهلها في الإسلام، وقد اهتم الخلفاء بهذا القطر، فأرسلوا إليه فضلاء الصحابة كمعاذ بن جبل الذي أخذ مكانة علمية فائقة فهو مبعوث النبي ﷺ إلى اليمن، وهو خليفته على أهل مكة يعلمهم الحلال والحرام، وهو مبعوث عمر إلى الشام ليفقههم في دين الله، روى ابن سعد في «الطبقات» عن أبي مسلم الخولاني قال: دخلت مسجد حمص فإذا فيه نحو من ثلاثين كهلاً من أصحاب النبي ﷺ، وإذا فيهم شاب أكحل العينين براق الثنايا ساكت لا يتكلم، فإذا امترى القوم في شيء أقبلوا عليه فسألوه فقلت لجليس لي: من هذا؟ قال: معاذ بن جبل. ويروي ابن سعد أيضاً عن عمر بن الخطاب أنه قال حين خرج معاذ إلى الشام. لقد أَخَلَّ خروجه بالمدينة وأهلها في الفقه وما كان يفتيهم به، ولقد كنت كلمت أبا بكر رحمه الله أن يحبسه لحاجة الناس إليه فأبى عليَّ، وقال: رجل أراد جهاداً يريد الشهادة فلا أحبسه، فقلت: والله إن الرجل ليرزق الشهادة وهو على فراشه.

ومن أشهر من قام بالتعليم في هذا القطر أيضاً عبادة بن الصامت الذي امتاز بجمع القرآن وكان من أفقه الناس في الدين شديداً في الحق لا تأخذه في الله لومة لائم. أنكر على معاوية كثيراً من أموره. ومنهم أبو الدرداء الأنصاري وكان معدوداً من فقهاء الصحابة وحفاظ الحديث وقد أرسلهما عمر مع معاذ إلى الشام إجابة لطلب يزيد بن أبي سفيان فإنه كتب إلى عمر بن الخطاب: قد احتاج أهل الشام إلى من يعلمهم القرآن ويفقههم، فأرسل معاذاً وعبادة وأبا الدرداء، ذكر ذلك البخاري في «تاريخه». كان هؤلاء هم حجر الزاوية في الحركة العلمية ونشر السنة المحمدية في ربوع تلك البلاد، وقد أرسل عمر أيضاً عبد الرحمن بن غنم

للمهمة نفسها، وكان يقال له: صاحب معاذ لكثرة ملازمته له على أنه اختلف في صحبته، هذا وكثير من الصحابة غير هؤلاء انتشروا في الشام هداة ومعلمين منهم شرحبيل بن حسنة والفضل بن العباس بن عبد المطلب، يروي الحاكم أنه مدفون بالأردن، وأبو مالك الأشعري وغيرهم كثير.

وقد تخرج على أيديهم كثير من التابعين في مدارس الشام المختلفة منهم أبو إدريس الخولاني عائذ الله، وقبيصة بن ذؤيب، ومكحول بن أبي مسلم، ورجاء بن حيوة الكندي العالم الثقة الفاضل.

٦- دار الحديث بمصر:

فتح المسلمون مصر فدخل كثير من أهلها الإسلام، كذلك نزلها كثير من الصحابة ينشرون أحكام الذين وتعاليمه وأشهرهم: عبد الله بن عمرو بن العاص الذي كان من أكثر الصحابة حديثاً عن رسول الله ﷺ، كما امتاز عن غيره من سائر الصحابة بكتابة ما يسمعه من رسول الله ﷺ، خرج عبد الله مع أبيه عمرو بن العاص إلى مصر عندما ولاه إياها معاوية، ولما توفي عمرو بقي ابنه عبد الله مقيماً بمصر فكان يحج ويعتمر ثم يرجع إليها إلى أن توفي بها في بعض الأقوال.

وقد نزل كثير من الصحابة غير عبد الله بن عمرو مصر وقاموا بمهمة التعليم وتفقه على أيديهم كثير من أهل البلاد منهم: عقبة بن عامر الجهني، وخارجة بن حذافة، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح، ومحمية بن جزء، وعبد الله بن الحارث بن جزء، وأبو بصرة الغفاري، وأبو سعد الخير، ومعاذ بن أنس الجهني وغيرهم حتى لقد أفردهم محمد بن الربيع الجيزي بالتأليف، فبلغ عددهم مائة ونيفاً وأربعين صحابياً كما

أورد أحاديثهم في تأليفه ذلك [1].

تخرج على هؤلاء الصحابة كثير من التابعين منهم: أبو الخير مرثد بن عبد الله اليزني مفتي أهل مصر روى عن أبي أيوب الأنصاري، وأبو بصرة الغفاري، وعقبة بن عامر الجهني. ومنهم يزيد بن أبي حبيب، روى عن بعض الصحابة وأكثر روايته عن التابعين وهو بربري الأصل أبوه من أهل دنقلة ولكنه نشأ بمصر.

هذه نبذة قصيرة عن معاهد العلم ودور الحديث في أشهر الأمصار الإسلامية لذلك العهد تدلك على مكانة هؤلاء الصحابة وتابعيهم في نشر ورواية الحديث.

(١) إعلام الموقعين (١-٢١) علوم الحديث للحاكم (ص ١٩٣) ضحى الإسلام (٣ - ٨٩).

المبحث الثاني

رحلة العلماء في طلب الحديث

تفاوت الصحابة رضوان الله عليهم في حفظ الحديث:

رأيت كيف اتسعت الفتوح الإسلامية وما تبع ذلك من تفرق الصحابة في الأمصار المتباعدة ينشرون دين الله وأحاديث رسول الله. وبدهي أن الصحابة لم يكونوا على درجة واحدة في حفظ الحديث وجمع السنن بل كانوا مختلفين اختلافاً كبيراً فكان عند بعضهم الحديث الواحد وعند بعضهم الحديثان وهكذا. فقد حدث النبي ﷺ قوماً بما لم يحدث به آخرين، ووقع من الحوادث أمام قوم ما لم يطلع عليه آخرون. ومن هنا قال مسروق ـ وكان من التابعين ـ لقد جالستُ أصحاب محمد ﷺ فوجدتهم كالإخاذ فالإخاذ يروي الرجل، والإخاذ يروي الرجلين، والإخاذ يروي العشرة، والإخاذ يروي المائة، والإخاذ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم.

ماذا يكون الحال إذا تفرق الصحابة كما رأيت وحالهم على ما رأيت لقد تناثرت الأحاديث في الأمصار تبعاً لتفرق الصحابة في البلدان، والأحاديث لاغنى عنها في فهم القرآن والتفقه في أحكام الدين. نعم جُمِعَ القرآن الكريم على عهد عثمان رضي الله عنه ووزعت المصاحف على الأقطار وحفظ المسلمين لا يُختلف فيه. أما السنة التي هي بيان للكتاب فلم تُكتب لا في عهد النبي ﷺ ولا في عهد الخلفاء الراشدين إلى نهاية القرن

الأول لأسبابٍ ستأتي فيما بعد.

حاجة العلماء إلى الرحلة في هذا العصر:

ماذا يصنع أهل كل مِصْرٍ فيما يَعنُّ لهم من الحوادث ويتجدد لهم من الأحكام والحال كما وصفنا؟. إنه ليس أمامهم سوى باب واحد يطرقونه مهما كلفهم ذلك من عناء ومهما بذلوا فيه من أموالهم وأنفسهم. وذلك هو الرحلة من قطر إلى قطر ـ وذلك هو الذي كان من الصحابة والتابعين بل وأتباع التابعين، فشمروا عن ساعد الجد وجابوا البلاد شرقاً وغرباً مستعذبين كل مُرٍّ وصَابٍ في سبيل الحصول على حديث رسول الله ﷺ. وإنك إذا تتبعت تراجم المحدثين من الصحابة والتابعين وتابعيهم ومن جاء بعدهم إلى أن دُوِّنت السُّنةُ في بطون الكتب؛ بل وبعد تدوينها أيضاً تجد أن المؤرخين لحياتهم يقولون في الرجل منهم مثلاً هو: فلان بن فلان المكي ثم المدني ثم الكوفي ثم البصري ثم الشامي ثم المصري، إيذاناً منهم بأن هذا الراوي كان رحالة في طلب الحديث والعلم.

أثر الرحلة في تمحيص الأحاديث: ليس هناك من شك في أن الرحلة إلى العلماء والتقاء الحفاظ بعضهم ببعض طريق عظيم في تثقيف العقول وتنقيح العلوم وتمحيص المحفوظ من الحديث، وبها يقف الراوي بنفسه على سيرة الرواة في بلدانهم ويعلم قوتهم من ضعفهم فضلاً عن الاستزادة من الحديث وحفظ ما لم يكن موجوداً عند علماء بلده وأهل مصره. وقد كانت الرحلة هي سنة العلماء من لدن الرسول ﷺ إلى أن أدرك الأمة الإسلامية التكاسل والتواكل وقعدت عن العمل النافع المجدي الذي كان عليه أسلافهم.

وقد قدمنا لك أن بعض أصحاب رسول الله ﷺ كان إذا بعدت به الدار يركب إلى المدينة فيسأل رسول الله ﷺ. واستمر أمر الصحابة على ذلك أيضاً بعد وفاة رسول الله ﷺ يرحل بعضهم إلى بعض في طلب الحديث. إلا أنه لما اتسعت الفتوح الإسلامية وتفرق بها الصحابة كما سبق شاعت الرحلة وظهر أمرها بين الصحابة والتابعين في عصرنا هذا.

ونحن نذكر لك طائفة من الآثار بعضها عن الصحابة وبعضها عن التابعين لتلمس بنفسك تلك الجهود الجبارة التي قام بها أسلافنا حيال جمع الحديث ليتضح لك عنايتهم بسنة رسول الله ﷺ وحرصهم على جمعها. فهذا أبو أيوب الأنصاري يرحل من المدينة إلى عقبة بن عامر بمصر يسأله عن حديث سمعه من النبي ﷺ، فلما قدم إلى منزل مسلمة بن مخلد الأنصاري أمير مصر خرج إليه فعانقه ثم قال له: ما جاء بك يا أبا أيوب؟ قال: حديث سمعته من النبي ﷺ ولم يبق أحد سمعه منه غيري وغير عقبة فابعث من يدلني على منزله، فبعث معه من يدله على منزل عقبة. فقال: ما جاء بك يا أبا أيوب؟ فقال: حديث سمعته من رسول الله ﷺ لم يبق أحد سمعه منه غيري وغيرك في ستر المؤمن، قال عقبة: نعم. سمعت رسول الله ﷺ يقول «مَنْ ستر مؤمناً في الدنيا على خزيةٍ ستره الله يوم القيامة» فقال أبو أيوب: صدقت، ثم انصرف أبو أيوب إلى راحلته فركبها راجعاً إلى المدينة وما حَلَّ رحله، فما أَدْرَكَتْهُ جائزة مسلمة بن مخلد إلا بعريش مصر.

فانظر رعاك الله إلى همة صحابة رسول الله ﷺ كيف هانت عليهم الدنيا وصغرت أمامهم العظائم في سبيل المحافظة على سنة رسول الله، فَضَحَّوا براحتهم وركبوا الأخطار وقطعوا المفاوز والقفار في طلب الحديث. فأبو أيوب على تَقَدُّمِ صُحبتهِ وكثرة

سماعه من رسول الله ﷺ يرحل من المدينة إلى مصر متحملاً مشقة السفر ووعثاءه ثم هو يرجع من ساعته ولا تحدثه نفسه بالمقام بمصر يوماً أو يومين يستجم فيه.

وهذا عمرو بن أبي سلمة يقول للأوزاعي: يا أبا عمرو أنا ألزمك منذ أربعة أيام ولم أسمع منك إلا ثلاثين حديثاً. قال: وتَستقلُّ ثلاثين حديثاً في أربعة أيام؟ لقد سار أبو أيوب الأنصاري إلى مصر واشترى راحلة فركبها حتى سأل عقبة بن عامر عن حديث واحد وانصرف إلى المدينة وأنت تستقل ثلاثين حديثاً في أربعة أيام؟ فأبو أيوب معدود من المُكْثِرين في الحديث عن رسول الله ﷺ ومع ذلك يستعظم أن يفوته بعض الحديث فيرحل إلى مصر على بعد الشقة بينها وبين المدينة ويشتري لهذه الغاية الشريفة دابة يركبها. فانظر إلى أي حد كان الصحابة يخدمون دينهم ويجمعون أحاديث نبيهم وكل همهم أن يكونوا سعداء بحمل الحديث وتبليغه والعمل به.

وهذا سعيد بن المسيب يقول: إني كنت لأسافر مسيرة الأيام والليالي في الحديث الواحد. «روى هذه الآثار كلها الحاكم في معرفة علوم الحديث ص ٧، ٨».

وروى البخاري في كتاب العلم عن صالح الهمداني عن الشعبي عن أبي بردة عن أبيه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أيما رجل كانت عنده وليدة فعلَّمها فأحسن تعليمها وأدبها فأحسن تأديبها وأعتقها فتزوجها فله أجران. وأيما رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي فله أجران. وأيما مملوك أدى حق مواليه وأدى حق ربه فله أجران». فلما انتهى الشعبي من رواية هذا الحديث قال للسامع الذي يتلقاه عنه. «خذها بغير شيء، قد كان الرجل يرحل فيما دونها إلى المدينة»، فكلمة الشعبي هذه وهو من التابعين تُعْلِمُنا بما كان يقوم به العلماء من الصحابة والتابعين من الرحلات إلى مدينة النبي ﷺ في طلب

الحديث مهما كان قليلاً.

وعن جابر بن عبد الله قال: بلغني حديث عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ فابتعت بعيراً فَشَدَدْتُ عليه رَحْلي ثـم سـرت إليـه شهراً حتى قدمت الشام فإذا عبد الله بن أنيس الأنصاري فأتيت منزله وأرسلت إليه أن جابراً على الباب فرجع إليَّ الرسولُ فقال جابر بن عبد الله فقلت نعم فخرج إلى فاعتنقته واعتنقني قال: قلت: حديث بلغني عنك أنك سمعته من رسول الله ﷺ في المظالم لم أسمعه أنا منه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يحشر الله تبارك وتعالى العباد... الحديث».

وهذا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يقول: كان يبلغنا الحديث عن رجل من أصحاب النبي ﷺ فلو أشاء أن أرسل إليه حتى يجيئني فيحدثني فعلتُ، ولكني كنت أذهب إليه فأَقيلُ على داره حتى يخرج فيحدثني. وهذا بسر بن عبد الله الحضرمي يقول: إن كنت لأركب إلى المصر من الأمصار في طلب الحديث الواحد لأسمعه. رواهما ابن عبد البر في« جامع بيان العلم وفضله» وقد عقد باباً لذلك خاصة سماه: باب ذكر الرحلة في طلب العلم، وأخرج الخطيب عن أبي العالية قال: كنا نسمع عن أصحاب رسول الله ﷺ فلا نرضى حتى خرجنا إليهم فسمعنا منهم.

هكذا تعاون العلماء في الأمصار المختلفة على حفظ السنة، رحل بعضهم إلى بعض، وتلقى بعضهم عن بعض، وجاهدوا في سبيل الحديث وجمعه جهاداً عظيماً وضربوا المثل عالياً لمن بعدهم من أهل الحديث فساروا على ضوء نبراسهم. وقد كان للرحلة أثر عظيم في عصور التدوين حتى لقد عُدَّ من يكتب الحديث في بلده ولا يرحل في طلبه ضالاً طريق الرشاد بعيداً عن محجة الهدى والسداد.

فهذا يحيى بن معين يقول: أربعة لا تؤنس منهم رشداً: حارس الدرب ومنادي القاضي وابن المحدث ورجل يكتب في بلده ولا يرحل في طلب الحديث، ولأمر ما يقول عبد الله بن عمر بن الخطاب قلت لطالب العلم يتخذ نعلين من حديد.

التفت أيها القارئ ـ وتصور العصر الذي نحدثك عنه وكيف كانت المواصلات فيه لم تكن هناك طرق معبدة ولا سيارات ولا طائرات بل كانت رَكُوبتهم الخيلُ والجِمال يقطعون بها الفيافي المخيفة ما بين حُزونٍ وسُهولٍ وجبال وتلال وأسود وذئاب وكثيراً ما تلفحهم الصحاري بقيظها وتقرسهم[1] الفيافي بَقَرِّها، ويغشاهم الليل بظُلماتٍ بعضها فوق بعض إذا أخرج الواحد منهم يده لم يكد يراها. وكل هذ المخاطر كانت في نظرهم قليلة في جنب الله هينةً في سبيل جمعهم لحديث رسول الله ﷺ فجزاهم الله عن المسلمين خير الجزاء.

أثر الرحلة في شيوع رواية الحديث وتعدد طرقه:

تفرق علماء الصحابة في البلدان ينشرون الحديث ويروون السنن، ولتفاوتهم في حفظ الحديث قلة وكثرة نشطت الرحلة ونزح العلماء من قطر إلى قطر في جمع الحديث، وتبع اتساع الفتوح تجدد الحوادث والأقضية فأبرز العلماء من الصحابة ما عندهم من أحكام رسول الله ﷺ وقضاياه وقضايا الخليفتين من بعده. فكان طبيعياً أن يترتب على كل ذلك شيوع رواية الحديث بين العلماء في الأقطار المختلفة فبعد أن كان المصري مثلاً يتحمل الحديث ويرويه عن عبد الله بن عمرو بن العاص وغيره ممن نزل مصر أصبح يروي الحديث عن معاذ بن جبل وأبي الدرداء وأبي موسى وابن عباس وجابر بن عبد

(١) القيظ: شدة الحر، والقَرَسُ والقِرْسُ: أبرد الصقيع وأكثره، وأشدُّ البرد.

الله وعبد الله بن عمر بن الخطاب.

وهكذا وبعد أن كان الحديث يقع للراوي من طريق واحد أصبح يرويه من طرق عديدة. وبعد أن كانت بعض البلدان أكثر حظاً بالحديث وحَمَلَتِه كالمدينة مثلاً أصبحت البلدان كلها تتمتع برواية الحديث وتعمل به في أحكامها وقضاياها وعباداتها ومعاملاتها، وكلُّ ذلك بفضل ارتحال علماء الأقطار من بلد إلى بلد في طلب الحديث وتلقيه حتى رأينا الصحابي ينزح من المدينة التي هي مهبط الوحي وملاذ الحديث إلى مصر في طلب حديث سمعه زميله من النبي ﷺ.

المبحث الثالث

ظهور الكذب في الحديث ومناهضة العلماء للكذابين

كان حسناً أن تشيع رواية الحديث بين المسلمين في الأقطار المختلفة، وكان حسناً أن يتلقى التابعون عن الصحابة حديث رسول الله ﷺ بشغف عظيم، وكان حسناً أن يطبق المسلمون أحاديث نبيهم على كل أمورهم دينيةً كانت أم دنيوية.

ولكن لا تنس أيها القارئ أن للإسلام كما قدمناه لك أعداء واقفين له بالمرصاد، فمن الوقت الذي وقعت فيه الفتنة بين المسلمين بقتل الخليفة الثالث أولاً وبافتراقهم الى شيعة وخوارج وجمهور ثانياً وجد أعداء الإسلام من الفرس وغيرهم ستاراً يحجبهم فعملوا في الخفاء ودَسُّوا الأكاذيب، ولما شاعت رواية الحديث واتسعت الأقطار وجد هؤلاء الكائدون جواً صالحاً لبثِّ سمومهم وإلقاء أكاذيبهم في طول البلاد وعرضها.

كان الصحابة في الدور الأول زمن الخلافة الراشدة لا يبرحون المدينة إلا لحاجة ماسة وكانوا مشغولين بالحروب وكانت المدينة هي دار الحديث الوحيدة وكان أبو بكر وعمر قد أخذا الناسَ بالحَزْنِ[1] وأمراهم بإقلالِ الرواية حتى لا تفشو وتشيع فيتخذها الجهال والمنافقون ذريعة للكذب وإلقاء بذور الشر والفساد، وقد نجحت تلك التجربة

(١) الحَزْنُ: ما غَلُظَ من الأرض في ارتفاع، أو ما خَشُنَ، أي: أخذ الناس بالعزيمة لا بالسهل.

أيما نجاح وكفى الله السنة شر الكذابين. ولما انقضى عهد الخلافة الراشدة وانشق المسلمون بعضهم على بعض ظهر الكذابون والمنافقون من أهل الملل الأخرى الذين لم يتجاوز الإيمان حناجرهم، فلما شاعت رواية الحديث كما رأيت بين أهل الأقطار الإسلامية ظهر هؤلاء الدجالون من أرباب الفرق المختلفة بوجوه في نهاية التبجح والقِحَةِ فأخذوا يكذبون على الصحابة ويدعون أنهم رووا لهم الحديث وربما لم يكونوا قد رأوهم ولا سمعوا منهم، فأخذ هؤلاء الكذابون يأتون بالعظائم مما لم يأذن به الله ولا رسوله.

فهذا جابر بن يزيد بن الحارث الجعفي أبو عبد الله الكوفي الرافضي المتوفى سنة ١٢٧ هـ يقول: عندي خمسون ألف حديث ما حُدِّثْتُ منها بشيء. ويقول فيه سفيان: سمعت جابراً يحدث بنحو ثلاثين ألف حديث ما أَستحِلُّ أن أذكر منها شيئاً وإن كان لي كذا وكذا، وروى الحميدي عن سفيان قال: سمعت رجلاً سأل جابراً عن قوله عز وجل: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [يوسف]. فقال جابر: لم يجئ تأويل هذه الآية، قال سفيان: وكذب فقلنا: وما أراد بهذا؟ قال: إن الرافضة تقول: إن علياً في السحاب فلا نخرج مع من خرج من ولدِهِ حتى ينادي منادٍ من السماء ـ يريد أن علياً ينادي ـ اخرجوا مع فلان، يقول جابر: فهذا تأويلُ هذه الآية وكَذبَ، كانت في إخوة يوسف .

وهذا همام يقول: قدم علينا أبو داود الأعمى فجعل يقول: حدثنا البراء وحدثنا زيد بن أرقم، فذكرنا ذلك لقتادة فقال: كذب ما سمع منهم، إنما كان إذْ ذاكَ سائلاً يَتكَفَّفُ الناسَ زمن طاعون الجارف، أي عام سبع وثمانين، ويقول همام: دخل أبو داود الأعمى على قتادة فلما قام قالوا: إن هذا يزعم أنه لقي ثمانية عشر بدرياً، فقال قتادة:

هذا كان سائلاً قبل الجارف لا يعرض لشيء من هذا ولا يتكلم فيه، فوالله ما حدثنا الحسن عن بدري مُشافهةً، ولا حدثنا سعيد بن المسيب عن بدري مشافهة إلا عن سعد بن مالك [1]، فانظر كيف ادعى هذا الأعمى أنه سمع ثمانية عشر صحابياً ممن شهد بدراً مع أن الحسن وسعيد بن المسيب وهما أكبر منه سناً وأكثر اعتناء بالحديث وملازمة لأهله واجتهاداً في الأخذ عن الصحابة ما حَدَّثَ واحد منهما عن بدري واحد فكيف بأبي داود الأعمى يدعي أنه لقي ثمانية عشر بدرياً؟ سبحانك هذا بهتان عظيم.

ولكن الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أخذوا على هؤلاء الوضاعين المسالك وشَرَّدُوا بهم مَنْ خلفهم.

انظر إلى قول الشعبي رضي الله عنه: حدثني الحارث الأعور وكان كذاباً.

وهذا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يؤتى بقضاء علي كرم الله وجهه في خريطة فيمحوه ولا يترك منه إلا مقدار ذراع، وذلك لأن الشيعة أفسدوا كثيراً من علم الإمام علي فقاتلهم الله أنى يؤفكون.

وهذا بشير بن كعب يأتي ابن عباس فيحدثه بأحاديث فيقول له ابن عباس: عُدْ لحديث كذا وكذا فيعود له ثم يحدث فيقول له عد لحديث كذا وكذا فيعود له. فقال له: ما أدري أَعرفتَ حديثي كله وأنكرت هذا أم أنكرت حديثي كله وعرفت هذا. فقال له ابن عباس: إنا كنا نحدث عن رسول الله ﷺ إذ لم يكن يُكذَبُ عليه، فلما ركب الناس الصعب والذلول تركنا الحديث عنه.

وهذا مجاهد يقول: جاء بشير العدوي إلى ابن عباس فجعل يحدث ويقول: قال

---

(١) هو سعد بن أبي وقاص.

رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ فجعل ابن عباس لا يأذن لحديثه ولا ينظر إليه، فقال: يا ابن عباس. مالي أراك لا تسمع لحديثي؟ أُحدِّثكَ عن رسول الله ﷺ ولا تسمع؟ فقال ابن عباس: إنا كنا إذا سمعنا رجلاً يقول: قال رسول الله ﷺ ابتدرته أبصارنا وأصغينا إليه بآذاننا، فلما ركب الناس الصعب والذلول لم نأخذ من الناس إلا ما نعرف.

ذكر هذه الآثار مسلم في مقدمة صحيحه.

هذا وهناك صنف من الوضاعين كان شراً مستطيراً على الحديث ألا وهم القصاص الذين يستهوون العامة بالمناكير ويأخذون عليهم قلوبهم برواية الغرائب التي لا أصل لها وقد وجد منهم في هذا الدور خلق كثير.

فهذا هو الشعبي التابعي العظيم أحد أعيان المائة الأولى للهجرة (١٧ - ١٠٤) يقول: بينما عبد الملك بن مروان جالس وعنده وجوه الناس من أهل الشام قال لهم: من أعلم أهل العراق؟ قالوا: ما نعلم أحداً أعلم من عامر الشعبي، فأمر بالكتاب إلي فخرجتُ إليه حتى نزلت «تدمر» فوافقت يوم جمعة، فدخلت أصلي في المسجد، فإذا إلى جانبي شيخ عظيم اللحية قد أطاف به قومٌ فحدثهم قال: حدثني فلان عن فلان يبلغ به النبي ﷺ: أن الله تعالى خلق صورين في كل صور نفختان نفخة الصعق ونفخة القيامة، قال الشعبي: فلم أضبط نفسي أنْ خَفَّفتُ صلاتي، ثم انصرفتُ، فقلت: يا شيخ اتق الله ولا تحدثنا بالخطأ إن الله تعالى لم يخلق إلا صوراً واحداً وإنما هي نفختان نفخة الصعق ونفخة القيامة، فقال لي: يا فاجر إنما يحدثني فلان عن فلان وتَردُّ عليَّ، ثم رفع نعله وضربني بها، وتتابع القوم عليَّ ضرباً معه، فو الله ما أقلعوا عني حتى حلفت لهم أن الله تعالى خلق ثلاثين صوراً له في كل صور نفخة فأقلعوا عني، فرحلت حتى دخلت

دمشق ودخلت على عبد الملك فسلمت عليه، فقال لي يا شعبي: بالله حدثني بأعجب شيء رأيته في سفرك فحدثته حديث المتقدمين فضحك حتى ضرب برجليه. ذكره السيوطي في «تحذير الخواص» ص ٥١، ٥٢.

فانظر إلى أي حد بلغ الكذب على رسول الله ﷺ في ذلك العصر وانظر إلى استماع العامة للأكاذيب وتعلقهم بها حتى إنهم إذا نُصِحُوا ثاروا على الناصح فأهانوه وضربوه، فمن ذلك نأخذ أن مهمة المحدثين في هذا الوقت كانت من أشق ما يكون، فقد أفسد القُصَّاصُ والزنادقة قلوبَ العامة وحشوها بالخرافات، وشأن العامة في كل زمان الاستماع للغريب من الحديث والجلوس إلى القاص إذا ما كان كلامه عجيباً خارجاً عن فِطَرِ العقول أو كان رقيقاً يحزن القلوب ويستغزر العيون.

وهذا ابن عمر يزجر القاص ويأمره بالقيام من المسجد فلا يستمع لأمره حتى يستعين عليه بصاحب الشرطة فيبعث إليه شرطياً يخرجه إلى غير ذلك من الحوادث.

وقد رأينا أن نتكلم على نشأة الوضع في الحديث وتاريخه وجهود العلماء لمناهضة الوضاعين في فصل خاص إن شاء الله عند الكلام على أنواع الحديث في الخاتمة لأن الوضع لم يكن خاصاً بعصر من العصور؛ بل هو وليد العصور جميعها ونكتفي بهذا القدر الآن.

المبحث الرابع

كتابة الحديث

الكتابة عند العرب قبيل الإسلام:

الخط مظهر من مظاهر التحضر، وأثر من آثار الاجتماع والتمدن، لذا سبقت إليه الأمم المتمدنة، وكان أبعد الناس منه الأمم البادية. والعرب لما كانوا قوماً بدويين كانوا بطبيعة الحال أميين لا يقرؤون ولا يكتبون، اللهم إلا في الجهات التي عرفتها الحضارة من جزيرتهم كاليمن، فقد كان أهل هذه البلاد يخطون، وكان خطهم يسمى بالخط المسند، على أنه لم تكن الكتابة عندهم بالشيء الذائع يتناوله جميع الأفراد، بل كان ذلك في الخاصة منهم، ومن اليمن انتقل الخط إلى الحيرة والأنبار لما كان من الارتباط بين ملوك الإقليمين، وكانوا يسمون خطهم بخط الجزم لأنه اقتطع من المسند الحميري، ومن الحيرة انتقل الخط إلى مكة، نقله حرب بن أمية، وكان رجلاً سفاراً، ومن عهده بدأ الخط بمكة، فتعلمه بعض رجال قريش. هذه هي الجهات الثلاث التي وجدت بها الكتابة الخطية، على أنها كما قلنا لم تكن بالشيء الذائع المتداول. أما بادية العرب فلم تكن تخط؛ بل كانت ترى الخط وصمة عار وسمة عيب كما هو شأنها في سائر الصناعات المدنية.

هذا وكأن الله تعالى أذن بنقل الكتابة من الحيرة إلى مكة قبيل الإسلام لتكون فيما

بعد عاملاً من عوامل حفظ القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، ثم إنه لم تكن الكتابة منتشرة بين العرب، بل كانت منحصرة في أفراد قليلين مما يجعل الحكم على الأمة العربية بأنها أمة أمية لا تقرأ ولا تكتب من السهولة بمكان، حتى لقد سماها القرآن عند مجيء الإسلام بذلك، فقال سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة] وقد كان عدم انتشار الكتابة وذيوعها بين العرب من أهم العوامل في تنمية مَلَكةِ الحِفظ فيهم، فقد اعتمدوا على قوة الحافظة في جمع ما يهمهم من الأشعار والأنساب والمفاخر والأيام، والمَلَكَةُ متى استعملت عظمت ونمت، ولذا كان العرب من أحفظ الأمم التي عرفها التاريخ إلى يومنا هذا.

الكتابة بمكة عند مجيء الإسلام:

وأيا ما كان الأمر فقد جاء الإسلام وليس بمكة ممن يعرف الكتابة سوى سبعة عشر رجلاً منهم: عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وعثمان بن عفان وأبو عبيدة بن الجراح، وطلحة، ويزيد بن أبي سفيان، ومعاوية بن أبي سفيان، وأبو سفيان بن حرب، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وحاطب بن عمرو، وأبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي، وبعض من نسائهم كُنَّ يكتبن أيضاً منهن: الشفاء بنت عبد الله العدوية، وحفصة بنت عمر زوج النبي ﷺ وأم كلثوم بنت عقبة وكريمة بنت المقداد وغيرهن.

الكتابة بالمدينة عند قدوم النبي ﷺ إليها:

أما في المدينة فكانت الكتابة بين الأوس والخزرج قليلة، وكان بعض اليهود قد علم كتابة العربية، وكان يعلمها الصبيان بالمدينة في الزمن الأول. فجاء الإسلام وفي الأوس والخزرج عدة يكتبون، منهم: سعد بن عبادة، والمنذر بن عمرو، وأبي بن كعب،

وزيد بن ثابت الذي كان يكتب العربية والعبرانية، ورافع بن مالك وأسيد بن حضير. وغيرهم، وقد عدهم البلاذري أحد عشر رجلاً.

النبي ﷺ يعمل على نشر الكتابة:

هذا ولما جاء الإسلام أخذ بيد العرب إلى ترقية الكتابة والنهوض بها والعمل على نشرها،وكان للكتابة منزلة عظيمة في حفظ الوحي وتبليغ الرسالة إلى الملوك وأهل الآفاق. لذا كانت عناية النبي ﷺ بها شديدة، فقد انتهز أول فرصة لنشر الكتابة بين المسلمين فجعل فداء بعض الأسرى في بدر ممن يعرفون الكتابة أنْ عَلَّمَ الواحدُ منهم عشرة من صبيان المسلمين بالمدينة القراءة والكتابة، ولا يُطلَقُ إلا بعد أن يتم تعليمهم.

كتابة القرآن والرسائل:

وقد استعمل النبي ﷺ الكتابة في تدوين ما ينزل من القرآن، وفي إرسال الرسائل إلى الملوك يدعوهم فيها إلى الإسلام، واتخذ لذلك كُتَّاباً من الصحابة. فأول من كتب له بمكة من قريش عبد الله بن سعد بن أبي سرح لكنه ارتد وهرب من المدينة إلى مكة ثم عاد إلى الإسلام بعد الفتح، وأول من كتب له بالمدينة أُبيٌّ بن كعب وكان إذا غاب دعا النبي ﷺ زيد بن ثابت فكتب له، وكان زيد وأبي يكتبان الوحي والرسائل أيضاً، ثم لما فتحت مكة وأسلم معاوية بن أبي سفيان كان يكتب للنبي الوحي، وغير هؤلاء كثير كانوا يكتبون لرسول الله ﷺ كالخلفاء الراشدين وأبان بن سعيد وزيد بن أرقم وحنظلة بن الربيع [1].

هذا وقد كتب القرآن كله بين يدي النبي ﷺ على الرقاع والأضلاع والحجارة

(١) فتوح البلدان ص ٤٥٨.

الرِّقاق، لأن الورق المعروف الآن لم يكن قد وجد عند العرب في زمن النبي ﷺ، وقد كان نزول القرآن متفرقاً على حسب الحوادث والأسئلة، فكانت الآية تنزل على النبي ﷺ فيأمر كاتب الوحي بكتابتها في موضع كذا من سورة كذا، وقد مكث الأمر على هذا الحال ثلاثة وعشرين عاماً - على أحد الأقوال - من يوم مبعث النبي ﷺ إلا أن توفاه الله.

هل كتب الحديث في حياة النبي ﷺ كما كتب القرآن؟

حكمة النهي عن كتابة الحديث:

نزل القرآن كما قدمنا لك منجما آية آية وسورة سورة، واتخذ النبي ﷺ لكتابته أفراداً من الصحابة، والقرآن الكريم وإن امتاز عن سائر كلام البشر بجزالة المعنى، وفخامة اللفظ، وحسن السياق، وكمال النظم، الأمر الذي أعجز البلغاء عن محاكاته، فخروا لبلاغته ساجدين، فإنه مع ذلك قد يلتبس الأمر على من ليسوا من فرسان البلاغة، إذ يشتبه عليهم الآية من القرآن بالحديث من كلام رسول الله ﷺ، فدفعاً لهذا الاشتباه، ومنعاً للوقوع في خطر التغيير والتبديل، الذي وقع فيه أهل الكتاب من اليهود والنصارى من قبل، منع رسول الله ﷺ من كتابة السنن، وتدوين الأحاديث، حتى يتسع المجال أمام القرآن، ويأخذ مكانه من الحفظ والكتابة معاً، وحتى يثبت في صدور الحُفَّاظ وتَألَفه أسماعهم، وبذلك يزول خطر الالتباس. لذلك نهى النبي ﷺ عن كتابة الحديث.

روى مسلم في «صحيحه» عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: (لا تكتبوا عني شيئاً غير القرآن ومن كتب عني شيئاً غير القرآن فَلْيَمْحُه). فتراه قد منعهم

من كتابة الحديث، ووكله إلى حفظهم، وأجاز لهم روايته ونقله عنه، مع تحذيره لهم من الكذب عليه، وقد كان الصحابة كما تقدم لك على جانب عظيم في الحفظ فلم يكن هناك خوف على السنن من الضياع، وشيء آخر جعل النبي ﷺ ينهاهم عن كتابة الحديث هي المحافظة على تلك المَلَكةِ التي امتازوا بها في الحفظ، فلو أنهم كتبوا لا تَّكَلُوا على المكتوب وأهملوا الحفظ فتضيع ملكاتهم بمرور الزمن، أضف إلى هذا أن الكتابة لم تكن منتشرة فيهم، ولم يكونوا أتقنوها حتى تحل محل الحفظ، وما كان من الكتابة عند أفراد قلائل فقد انحصر عملهم في كتابة القرآن والرسائل، ولو أنهم كُلِّفُوا مع ذلك كتابة السنن لوقع الناس في حرج عظيم، والتبس عليهم أمر السنة والكتاب.

التوفيق بين أحاديث النهي عن الكتابة والإذن فيها:

هذا وربما يقول قائل أن النبي ﷺ كما نهى عن كتابة الحديث كذلك ورد عنه الإذن بالكتابة وإباحتها، فقد روى البخاري في كتاب العلم أن النبي ﷺ قال: اكتبوا لأبي شاه - يعني الخطبة - التي سمعها منه ﷺ يوم فتح مكة، وقد سأله أبو شاه أن يكتبها له، وروي عن أبي هريرة أنه قال: ليس أحد من أصحاب رسول الله ﷺ أكثر حديثاً مني إلا ما كان من عبد الله بن عمرو فإنه كان يكتب ولا أكتب، إلى غير ذلك من الآثار الدالة على إباحته ﷺ كتابة الحديث عنه وهي بظاهرها تتعارض مع حديث أبي سعيد في النهي عن ذلك.

والجواب عن هذا التعارض: أن النهي كان خاصاً بوقت نزول القرآن خشية التباسه بغيره، والإذن بالكتابة كان في غير ذلك الوقت. أو أن النهي كان عن كتابة غير القرآن مع القرآن في صحيفة واحدة، والإذن كان بكتابة ذلك متفرقاً حتى يؤمن

الالتباس، أو يقال: كان النهي عن الكتابة متقدماً لخوف التباس القرآن بالحديث أو لخوف الاتكال على الكتابة وإهمال الحفظ أو غير ذلك وكان الإذن متأخراً ناسخاً للنهي السابق عند أمن اللبس أو عدم الخوف من الاتكال على المكتوب.

على أن بعض العلماء يرى أن حديث أبي سعيد هذا موقوفٌ عليه، وليس من كلام النبي ﷺ، قال ذلك: البخاري وغيره.

وعلى أي حال فإن الحديث لم يكتب في زمن النبي ﷺ على النحو الذي كتب عليه القرآن، فلم يأمر النبي أحداً من كتاب الوحي بكتابة حديثه، وإن وُجِدَ من بعض الأفراد كتابةُ شيء فذلك قليل جداً وقد كان جل اعتمادهم على الحفظ كما رأيت.

ثم إننا لو لم نلتفت إلى قول بعض العلماء في وقف حديث أبي سعيد وقلنا برفعه إلى النبي ﷺ، فإن الذي نميل إليه ونستظهره هو أن آخر الأمرين من رسول الله ﷺ هو الإذن بكتابة الحديث، ودليلنا على ذلك:

أولاً: ما رواه البخاري عن ابن عباس أنه قال: (لما اشتد بالنبي ﷺ وجعه قال: ائتوني بكتابٍ أكتب لكم كتاباً لا تَضِلُّوا بعده... الحديث) فقد هَمَّ النبيُّ ﷺ أن يكتب لأصحابه كتاباً حتى لا يختلفوا من بعده، والنبي ﷺ لا يَهمُّ إلا بحق، فهذا منه ﷺ نسخ للنهي السابق في حديث أبي سعيد.

ثانياً: روى أحمد والبيهقي في «المدخل» والعقيلي من طرق مختلفة أن أبا هريرة قال: ما كان أحدٌ أعلم بحديث رسول الله ﷺ مني إلا عبد الله بن عمرو فإنه كان يكتبُ، استأذن رسولَ الله ﷺ أن يكتب بيده ما سمع منه فأَذِنَ له، فاستئذان عبد الله بن عمرو من النبي في كتابة الحديث يدل على أن الكتابة كان مَنْهِياً عنها في أول الأمر، وقد

أذن رسول الله ﷺ له بالكتابة لما استأذنه، ولا خصوصية لعبد الله بن عمرو على غيره. وعليه فيمكن أن يقال: إن رسول الله ﷺ لم يلتحق بالرفيق الأعلى إلا وكتابة الحديث مأذون فيها[1].

كتابة الحديث بعد زمن النبي ﷺ:

توفي رسول الله ﷺ ولم تدون السنة كما دون القرآن الكريم للحكمة التي أشرنا إليها فيما سبق. فلما كان عهد الخلفاء الراشدين ـ وقد رأيتَ أمرهم بتقليل الرواية مخافة أن يشتغل الناس بالحديث ويتركوا القرآن وأكثرهم لا يزال حديثَ عهدٍ به ولما يتم له جمعه في صدره ـ كذلك لم يريدوا أن يُدَوِّنُوا الحديثَ في الصحف كراهةَ أن يتخذها الناس مصاحف، يضاهون بها صحف القرآن العزيز، فيشتبه على بعضهم القرآن بالأحاديث، وربما اشتغلوا بها عن تلاوته ودرسه. لهذا نرى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يجمع أصحاب رسول الله ﷺ ليستشيرهم في كتابة السنن فيشيرون عليه بكتابتها، ثم يُحجِمُ عمر عن كتابتها مخافة أن يتخذها الناس مصاحف كالقرآن فيلتبس الأمر على عامتهم ومن يأتي بعدهم فيقعوا فيما وقع فيه أهل الكتاب حيث كتبوا الكتاب بأيديهم وقالوا: هذا من عند الله وتركوا كتاب الله وراء ظهورهم، وقد حدثنا القرآن عنهم فقال: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا

---

(١) بل هذا هو المتعين قال في الفتح (١ - ١٨٢): أن السلف اختلفوا في ذلك عملاً وتركاً وإن كان الأمر استقر والإجماع انعقد على جواز كتابة العلم؛ بل على استحبابه؛ بل على وجوبه على من خشي النسيان ممن يتعين عليه تبليغ العلم أ هـ.

كَسَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ [البقرة].

روى البيهقي في «المدخل» عن عروة بن الزبير أن عمر بن الخطاب أراد أن يكتب السنن فاستشار في ذلك أصحاب رسول الله ﷺ فأشاروا عليه أن يكتبها، فطفق عمر يستخير الله فيها شهراً، ثم أصبح يوماً وقد عزم الله له، فقال: إني كنت أردت أن أكتب السنن، وإني ذكرت قوماً كانوا قبلكم كتبوا كتباً فأَكَبُّوا عليها وتركوا كتاب الله، وإني والله لا ألبس كتاب الله بشيء أبدا [1].

وقد كان هذا رأياً من عمر رضي الله عنه يتناسب وحالة الناس في ذلك الوقت فإن عهدهم بالقرآن ما يزال جديداً لا سيما من يدخل الإسلام من أهل الآفاق، فلو أن السنن دُوِّنت ووُزِّعت على الأمصار وتناولها الناس بالحفظ والدرس لزاحمت القرآن الكريم وما أمن أن تلتبس به على كثير. فأراد عمر بثاقب فكره أن يحبس الناس على القرآن الكريم حتى يتمكن حفظه من نفوسهم وترسخ صورته في قلوبهم وينتشر بين خَاصِّهم وعامهم لا تحوم حوله الشبهات، ولا تؤثر فيه الشكوك والأوهام، فأمر بتقليل الرواية أولاً، وأحجم عن كتابة السنن ثانياً، سداً لذرائع الفساد وغلقاً لباب الفتنة.

وليس في هذا تضييع للأحاديث فإنه ما زال الناس بخير وما زالت ملكاتهم قويةوحوافظهم قادرة على حفظ السنن. وقد تتابع الخلفاء على سنة عمر رضي الله عنه فلم يشأ أحدهم أن يدون السنن ولا أن يأمر الناس بذلك حتى جاء عمر بن عبد العزيز فأمر بجمع الحديث لدواعٍ اقتضت ذلك بعد حفظِ الأمة لكتاب ربها وأمنها عليه أن يشتبه بالسنن.

(١) إعلام الموقعين (١-٢١) علوم الحديث للحاكم (ص ١٩٣) ضحى الإسلام (٣ - ٨٩).

أول من أمر بتدوين السنة من الخلفاء:

كاد القرن الأولى ينتهي ولم يُصدرْ أحدٌ من الخلفاء أمره إلى العلماء بجمع الحديث بل تركوه موكولاً إلى حفظهم وبعض كتاباتٍ لأفرادٍ منهم يعملونها لأشخاصهم أو لمن يطلبها منهم. ومرور مثل هذا الزمن الطويل كفيل بتركيز القرآن في نفوسهم فقد أصبح يتلوه القاصي والداني ويعرفه الخاص والعام لا يختلف فيه أحد ولا يتشكك في شيء من آياته، ولأول وهلة يسمع المسلم حرفاً من القرآن يعلم لوقته أنه هو القرآن لا غيره يحمل متانة ألفاظِهِ وجزالةَ أسلوبه وقوة إعجازه.

ومرور هذا الزمن الطويل كفيل أيضاً بأن يذهب بكثير من حملة الحديث من الصحابة والتابعين ويهيىء لكثير من أهل الأهواء كالخوارج والروافض أن يتزيدوا في الحديث ما شاؤوا وشاعت لهم أهواؤهم.

ومرور مثل هذا الزمن جعل العرب يختلطون بالأعاجم في البلدان المختلفة فيحصل بينهم التزواج والتناسل فينشأ جيل جديد قليل الضبط ضعيف الحفظ.

لذلك لما أن ولي الخلافة عمر بن عبد العزيز في العام التاسع والتسعين من الهجرة نظر بثاقب رأيه إلى الحديث النبوي فوجد من الواجب عليه كتابته وتدوينه، فقد زال المانع وتوفرت الدواعي.

فإزاء هذا كله أصدر عمر بن عبد العزيز أمره إلى علماء الآفاق بجمع الحديث وتدوينه.

روى البخاري في باب كيف يقبض العلم: (وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر بن حزم: انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه فإني خفت دروس العلم

وذهاب العلماء ولا تقبل إلا حديث النبي ﷺ وَلْتُفْشُوا العلمَ ولتجلسوا حتى يعلمَ مَنْ لا يعلم، فإن العلم لا يهلك حتى يكون سراً).

وأخرج أبو نعيم في تاريخ أصبهان: (أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى أهل الآفاق انظروا إلى حديث رسول الله ﷺ فاجمعوه). وروى مالك في الموطأ ـ رواية محمد بن الحسن ـ (أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عامله وقاضيه على المدينة أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أن انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء).

من هذه الروايات ترى أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى أهل الآفاق بأن يكتبوا الحديث. لكن من ذا الذي كان له فضيلة السبق في تدوين السنن منهم؟

المشهور على ألسن علماء الحديث وحفاظ الأثر، أن ابن شهاب الزهري هو أول من جمع الحديث على رأس المائة الأولى للهجرة بأمر الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز.

ذكر الحافظ ابن حجر العسقلاني في باب كتابة العلم من «فتح الباري» ما نصه: (قال العلماء: وكره جماعة من الصحابة والتابعين كتابة الحديث واستحبوا أن يؤخذ عنهم حفظاً كما أخذوه حفظاً، لكن لما قصرت الهِممُ وخشيَ الأئمةُ ضياع العلم دونوه، وأول من دون الحديث ابن شهاب الزهري على رأس المائة بأمر عمر بن عبد العزيز، ثم كثر التدوين ثم التصنيف وحصل بذلك خير كثير والحمد لله) أ هـ (ج ١ ص ٨١٥ الأميرية).

هذا وكانت طريقتهم في التدوين تتبع وحدة الموضوع، فهم يجمعون في المؤلف

الواحد الأحاديث التي تدور حول موضوع واحد كالصلاة مثلاً يجمعون الأحاديث الواردة فيها في مؤلف واحد، وهكذا الصوم والزكاة والطلاق وهلم جرا.

إلا أنه لم يبلغنا شيء من هذه الكتب الحديثية، والظاهر أن العلماء فيما بعد أدمجوها ضمن مصنفاتهم لاسيما إذا كانت محفوظة لهم كما هو الغالب من حالهم.

المبحث الخامس

تراجم لبعض مشاهير رواة الصحابة رضي الله عنهم

رأينا أن نترجم لبعض مشاهير الرواة من الصحابة حتى يتبين لنا شيء من عنايتهم بالسنة النبوية، وحرصهم عليها تلقياً وأداءً، ويحسن أن نقدم بين يدي ذلك كلمة موجزة عن معنى الصحابي، وبِمَ تُعرفُ الصحبة، وعن إجماع الأمة على عدالتهم وتوثيقهم فنقول:

من هو الصحابي؟

المحققون من أهل الحديث كالبخاري وأحمد بن حنبل أجمعوا على أن الصحابي من لقي النبي ﷺ وهو مميز مؤمناً به ومات على الإسلام، طالت مجالسته له أو قصرت، روى عنه أو لم يرو، غزا معه أو لم يَغْزُ.

قال البخاري في «صحيحه»: من صحب النبي ﷺ أو رآه من المسلمين فهو من أصحابه أ هـ. وقال أبو المظفر السمعاني: أصحاب الحديث يطلقون اسم الصحابي على كل من روى عنه ﷺ حديثاً أو كلمة ويتوسعون حتى يعدون من رآه رؤية من الصحابة. وهذا لشرف منزلة النبي ﷺ أعطوا كل من رآه حكم الصحبة. وذكر أن اسم الصحابي من حيث اللغة والظاهر يقع على مَنْ طالت صحبته للنبي ﷺ وكثرت مجالسته له على طريق التبع له والأخذ عنه، قال: وهذا طريق الأصوليين أ هـ.

وقال ابن الصلاح في «مقدمته»: روينا عن شعبة عن موسى السيلاني - وأثنى عليه خيراً - قال: أتيت أنس بن مالك فقلت: هل بقي من أصحاب رسول الله ﷺ أحد غيرك، قال: بقي ناس من الأعراب قد رأوه، فأما من صحبه فلا. إسناده جيد حدث به مسلم بحضرة أبي زرعة أ هـ. وهذا القول قريب من قول الأصوليين.

بم تعرف الصحبة؟

يعرف كون الراوي صحابياً:

١ - بالتواتر كما في الخلفاء الأربعة.

٢ - أو بالاستفاضة والشهرة القاصرة عن التواتر كما في ضمام بن ثعلبة وعكاشة بن محصن.

٣ - أو بأن يروى عن آحاد الصحابة أنه صحابي كما في حممة بن أبي حممة الدوسي الذي مات بأصبهان مبطوناً، فإن أبا موسى الأشعري شهد له أنه سمع النبي ﷺ.

٤ - أو بقوله وإخباره عن نفسه بأنه صحابي بعد ثبوت عدالته ومعاصرته للنبي ﷺ.

٥ - وكذلك تعرف الصحبة بإخبار أحد التابعين أن فلاناً من الصحابة بناء على قبول التزكية من الواحد العدل وهو الراجح.

إجماع الأمة على عدالة الصحابة رضوان الله عليهم:

للصحابة بأسرهم خَصيصةٌ وهي أنه لا يُسألُ عن عدالة أحد منهم وذلك أمر

مُسلَّمٌ به عند العلماء لكونهم على الإطلاق معدَّلين بنصوص الكتاب والسنة وإجماعِ مَنْ يُعتدُّ به في الإجماع في الأمة.قال الله تبارك وتعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح].

وفي نصوص السنة الشاهدة بذلك كثرة، منها: حديث أبي سعيد المتفق على صحته أن رسول الله ﷺ قال: (لا تسبوا أصحابي فو الذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أُحد ذهباً ما أدرك مُدَّ أَحدهم ولا نَصِيفه).

ومنها: حديث عبد الله بن مغفل عند الترمذي وابن حبان في صحيحه قال: قال رسول الله ﷺ: (اللهَ اللهَ في أصحابي، لا تتخذوهم غرضاً بعدي، فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه).

وبعد تعديل الله تعالى ورسوله لهم، لا يحتاج أحد منهم إلى تعديل أحدٍ من الخلق، على أنه لو لم يرد من الله تعالى ورسوله الكريم شيء في تعديلهم لأوجبت حالهم تعديلهم، لما كانوا عليه من الهجرة، والجهاد، ونصرة الإسلام، وبذل المهج والأموال، وقتل الآباء والأبناء في سبيل الله، والمناصحة في الدين، وقوة الإيمان واليقين. قال أبو زرعة الرازي: (إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنه زنديق، وذلك أن الرسول حق، والقرآن حق، وما جاء به حق، وإنما أدى ذلك كله إلينا

الصحابة، وهؤلاء الزنادقة يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة، فالجرح بهم أولى). قال ابن الصلاح. «ثم إن الأمة مجمعة على تعديل جميع الصحابة ومن لابس الفتن منهم. فكذلك بإجماع العلماء الذين يعتد بهم في الإجماع إحساناً للظن بهم ونظراً إلى ما تمهد لهم من المآثر وكأن الله سبحانه وتعالى أتاح الإجماع على ذلك لكونهم نقلة الشريعة» أ هـ.

عدد الصحابة:

هذا وأصحاب رسول الله ﷺ كثيرون جداً ولا يعرف عددهم على اليقين ومن عدهم من العلماء فإنما أراد التقريب. روى البخاري في صحيحه أن كعب بن مالك قال في قصة تخلفه عن غزوة تبوك: (وأصحاب رسول الله ﷺ كثير لا يجمعهم كتاب حافظ) وقيل لأبي زرعة: أليس يقال حديث رسول الله ﷺ أربعة آلاف حديث؟ قال: هذا قول الزنادقة، ومن يحصي حديث رسول الله ﷺ؟ قبض رسول الله عن مائة ألف وأربعة عشر ألفاً من الصحابة ممن روى عنه وسمع منه فقيل له: هؤلاء أين كانوا وأين سمعوا منه؟ قال: أهل المدينة وأهل مكة ومن بينهما والأعراب ومن شهد معه حجة الوداع كل رآه وسمع منه بعرفة) أ هـ.

ومن هذا ترى أن الرواة من الصحابة عن رسول الله ﷺ كثير جداً ـ لذلك نكتفي بذكر بعضهم ممن اشتهروا بالحديث مقتصرين على الناحية الحديثية لكل راوٍ مع إجمال الكلام على حياته العامة فنقول:

أبو هريرة:

هو عبد الرحمن بن صخر وكنيته أبو هريرة، أسلم وقدم على النبي ﷺ عام خيبر

سنة سبع من الهجرة في المحرم. وهو أحفظُ مَنْ روى الحديث في دهره بشهادة الإمام الشافعي رضي الله عنه وغيره، مع قلة صحبته لرسول الله ﷺ، والسر في ذلك أمور نذكرها لك:

أولاً: مواظبته على حضور مجالس النبي ﷺ فقد روى الشيخان وغيرهما أن أبا هريرة قال: إنكم تزعمون أن أبا هريرة يكثر الحديث عن النبي ﷺ، إني كنتُ امرأً مسكيناً صحبت النبي ﷺ على ملء بطني، وكان المهاجرون يشغلهم الصفق في الأسواق، وكانت الأنصار يشغلهم القيام على أموالهم فحضرت من النبي ﷺ مجلساً، فقال: من بسط رداءه حتى أقضي مقالتي ثم يقبضه إليه، فلن ينسى شيئاً سمعه مني، فبسطت بردة عليَّ حتى قضى حديثه، ثم قبضتها إليَّ، فوالذي نفسي بيده ما نسيت منه شيئاً بعد.

ثانياً: رغبته الشديدة في تحصيل العلم حتى نالته دعوة النبي ﷺ ألا ينسى شيئاً من العلم، فبزَّ أقرانه في كثرة الحديث عن النبي ﷺ، مع أنه لم يصحبه سوى ثلاث سنين.

روى النسائي في باب العلم من سننه (أن رجلاً جاء إلى زيد بن ثابت فسأله عن شيء، فقال: عليك أبا هريرة، فإني بينما أنا جالس وأبو هريرة وفلان في المسجد ذات يوم ندعو الله ونذكره إذ خرج علينا النبي ﷺ حتى جلس إلينا فسكتنا، فقال: عودوا للذي كنتم فيه، قال زيد: فدعوت أنا وصاحبي قبل أبي هريرة وجعل رسول الله ﷺ يؤمن على دعائنا. ثم دعا أبو هريرة فقال: اللهم إني أسالك ما سألكَ صاحبايَ، وأسألك علماً لا ينسى فقال رسول الله ﷺ: آمين، فقلنا يا رسول الله: ونحن نسأل الله

تعالى علماً لا ينسى، فقال: سبقكم بها الغلام الدوسي).

وروى البخاري في باب الحرص على الحديث من كتاب العلم عن أبي هريرة أنه قال: يا رسول الله: مَنْ أسعدُ الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ: «لقد ظننت يا أبا هريرة أنْ لا يسألني عن هذا الحديث أحد أولى منك لِمَا رأيتُ من حرصك على الحديث ـ أسعدُ الناس بشفاعتي يوم القيامة مَنْ قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه أو نفسه».

ثالثاً: أدرك أبو هريرة كبار الصحابة وأخذ عنهم الشيء الكثير من الحديث فتكامل علمه به واتسع أفقه فيه.

رابعاً: طولُ حياته بعد وفاة النبي ﷺ فقد عاش بعده سبعة وأربعين عاماً ينشر الحديث ويَبثُّه بين الناس بعيداً عن المناصب والمشاغل والفتن.

من هذه الأمور مجتمعة كان أبو هريرة أحفظ الصحابة للحديث، متفوقاً عليهم في باب التحمل والرواية معاً، وكان كل ما رواه أبو هريرة مجتمعاً يثبت متفرقاً لدى جميع الصحابة أو كثير منهم، لهذا كانوا يرجعون إليه، ويعتمدون في الرواية عليه، حتى أن ابن عمر كان يترحم عليه في جنازته ويقول: «كان يحفظ على المسلمين حديث النبي ﷺ».

قال البخاري: «روى عن أبي هريرة نحو من ثمانمائة رجل من أهل العلم من الصحابة والتابعين وغيرهم» أهـ.

وجاء عنه من الحديث خمسة آلاف وثلثمائة وأربعة وسبعون حديثاً (٥٣٧٤) اتفق الشيخان منها على ثلثمائة وخمسة وعشرين (٣٢٥)، وانفرد البخاري بثلاثة

وتسعين (٩٣)، ومسلم بمائة وتسعة وثمانين (١٨٩).

توفى أبو هريرة بالمدينة سنة (٥٧) سبع وخمسين من الهجرة على المعتمد عن ثمانية وسبعين عاماً رضي الله عنه.

أبو سعيد الخدري:

هو سعد بن مالك بن سنان الخدري الأنصاري الخزرجي استشهد أبوه يوم أُحد، ولم يترك له مالاً، فتحمل أبو سعيد هموم العيش ومصاعب الحياة صغيراً.لكن لم يمنعه ذلك عن حضور مجالس النبي ﷺ، وتلقى الحديث عنه في رغبة وحرص فائقين حتى تحمل عنه ما لم يتحمله من كان في مثل متاعبه المعيشية فَعُدَّ بحقٍّ من مشهوري الصحابة وفضلائهم ومحدثيهم المكثرين ورواتهم النابهين.

عاش أبو سعيد بعد رسول الله ﷺ أربعة وستين عاماً مَكَّنته من تحمل الحديث عن كبار الصحابة، ثم نشره وأدائه إلى الناس، لذلك كثر المروي عنه حتى جاوز الألف. فقد نقل عنه أصحاب الحديث (١١٧٠) ألفاً ومائة وسبعين حديثاً، اتفق الشيخان منها على (٤٦) ستة وأربعين، وانفرد البخاري بـ(١٦) بستة عشر حديثاً، ومسلم باثنين وخمسين حديثاً (٥٢).

روى الحديث عن أبي سعيد كثير من الصحابة والتابعين، فمن الصحابة: جابر وزيد بن ثابت وابن عباس وأنس وابن عمر وابن الزبير. ومن التابعين: سعيد بن المسيب وأبو سلمة وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة وعطاء بن يسار وغيرهم.

وشهد مع النبي ﷺ اثنتي عشرة غزوة أولاها الخندق. وكان قوالاً للحق لا يرهب فيه أحداً مهما كان سلطانه وعظيم شأنه.

توفي أبو سعيد بالمدينة سنة أربعة وسبعين عن بضع وثمانين سنة. نشر فيها كثيراً من الحديث وكان محل تقدير الصحابة والتابعين، فرضي الله عنه.

جابر بن عبد الله:

هو جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري السلمي الصحابي ابن الصحابي أحد المكثرين من رواية الحديث عن رسول الله ﷺ.

روى عن النبي ﷺ وعن كثير من أصحابه كأبي بكر وعمر وعلي، وروى عنه أولاده عبد الرحمن وعقيل ومحمد، وكثير من التابعين كسعيد بن المسيب وعمرو بن دينار والحسن البصري وغيرهم.

استشهد والده في غزوة أُحد وترك بنات صغاراً وديناً كبيراً مما جعل جابراً يذوق نَصَبَ الحياة وشَظفَ العيش، إلا أن النبي ﷺ تلقاه بعطفه وكرمه ورعاه بعنايته حتى قضى دينه.

على أن ما لقيه جابر من صعوبات الحياة لم يكن مانعاً له من تحصيل العلم وتلقي الحديث عن النبي ﷺ، فقد لازمه في كل غزواته بعد مقتل أبيه، وأتاح له صغر سنه وامتداد عمره وشهوده عصر كبار الصحابة، الإكثارَ من تحمل الحديث وروايته حتى كان له حلقة في المسجد النبوي يؤخذ عنه فيها العلم.

عاش جابر بعد رسول الله ﷺ أربعة وستين عاماً قضاها في نشر الحديث حتى روي له (١٥٤٠) ألف وخمسمائة وأربعون حديثاً. اتفق البخاري ومسلم منها على ستين حديثاً. وانفرد البخاري بستة وعشرين حديثاً، ومسلم بمائة وستة وعشرين حديثاً.

ومناقبه رضي الله عنه كثيرة: منها ما رواه الشيخان عنه قال: قال لنا رسول الله ﷺ يوم الحديبية: (أنتم اليوم خير أهل الأرض) وكنا ألفاً وأربعمائة.قال جابر: لو كنت أُبصِرُ اليومَ لأَريتُكُم مكان الشجرة.

كُفَّ بصره في أواخر عمره وتوفي سنة ثمان وسبعين من الهجرة على أحد الأقوال رضي الله عنه.

أنس بن مالك:

هو أنس بن مالك بن النضر الأنصاري الخزرجي النجاري خادم رسول الله ﷺ ونزيل البصرة، جاءت به أمه أم سليم إلى رسول الله ﷺ مقدمه المدينة، وقالت: يا رسول الله: هذا غلام يخدمك، فقبله النبي ﷺ. فوجد أنس فيه أكبر العزاء عن والده،ونشأ في بيت النبوة، وشاهد ما لم يشاهده غيره. ووقف من أحوال النبي وأفعاله على الشيء الكثير. وعاش بعد النبي ﷺ ثلاثة وثمانين عاماً، فساعده ذلك على تلقي الكثير من الحديث عن رسول الله ﷺ، وعن الكبار من أصحابه بعده. كما أمكنه طول حياته من نشر الحديث بين الناس.

استقر بالبصرة بعد المدينة، وتصدر للرواية، وتخرج عليه كثير من أئمة الحديث من التابعين، أمثال الحسن وابن سيرين وحميد الطويل وثابت البناني وغيرهم.

روي لأنس ألف ومائتان وستة وثمانون حديثاً (١٢٨٦) اتفق الشيخان منها على مائة وثمانية وستين. وانفرد البخاري بثلاثة وثمانين. ومسلم بأحد وسبعين.

وروى البخاري في تاريخه عن قتادة قال: لما مات أنس قال مورق: ذهب اليوم نصف العلم، قيل له: كيف ذلك؟ قال: كان الرجل من أهل الأهواء إذا خالفنا في

الحديث قلنا تعال إلى من سمعه من النبي ﷺ.

وكانت وفاة أنس خارج البصرة على نحو فرسخ ونصف، ودفن في موضع يعرف بقصر أنس، والصحيح الذي عليه الجمهور أنه توفي سنة ثلاثة وتسعين من الهجرة.

عائشة أم المؤمنين:

هي عائشة بنت أبي بكر الصديق، إحدى أمهات المؤمنين، وزوج النبي ﷺ، ولدت بعد بعثة النبي بسنتين على أحد الأقوال. ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ تزوجها وهي بنت ست سنين وبنى بها وهي بنت تسع سنين في شوال من السنة الأولى للهجرة. وقيل من السنة الثانية بعد مُنصرفِهِ من بدر.

هيأ لها زواجها من رسول الله ﷺ واختلاطها به مع ذكائها النادر وفطنتها العظيمة وفكرها الثاقب ورغبتها الشديدة في معرفة أحكام الدين أن تحملت كثيراً من الحديث وعلوم القرآن حتى ضربت في كل علم بسهمٍ وافر وأصبحت المرجع في الحكم عند الاختلاف. فلا غرابة أن تَلقَّى عنها كبار الصحابة، وتحمل عنها الحديث عمر بن الخطاب على كثرة ملازمته لرسول الله ﷺ، أضف إلى ذلك أنها بقيت بعد وفاته ﷺ تسعة وثلاثين عاماً يغترف الناس من بحرها الزاخر وعلمها الفياض.

فلا جرم أن كانت عائشة معدودة من المكثرين لرواية الحديث عن رسول الله ﷺ. روي لها ألفان ومائتان وعشرة أحاديث (٢٢١٠) اتفق الشيخان من ذلك على مائة وأربعة وسبعين حديثاً. وانفرد البخاري بأربعة وخمسين، ومسلم بثمانية وستين.

قال مسروق: رأيت مشيخة أصحاب رسول الله ﷺ الأكابر يسألونها عن

الفرائض.

توفيت رضي الله عنها سنة سبع وخمسين من الهجرة.

عبد الله بن عباس:

هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب، ابن عم رسول الله ﷺ، وابن أخت زوجه ميمونة بنت الحارث الهلالية أم المؤمنين. ولد قبل الهجرة بثلاث سنين على الأصح، وقُبِض رسولُ الله ﷺ وهو ابن ثلاث عشرة سنة على أحد الأقوال.

في الصحيح أن النبي ﷺ ضمه إليه وقال: اللهم علمه الحكمة.

كان لابن عباس بحكم قرابته من النبي ﷺ وصغر سنة اختلاط كثير مَكَّنُه من كثرة الرواية عنه.أضف إلى هذا ميله الطبيعي إلى تحصيل الحديث وشغفه العظيم به مما وَجَّه نظرَ النبي ﷺ إليه فَسُرَّ به ودعا له. وقد ظهر لكل هذه العوامل آثارها في شخص هذا الصحابي الجليل حتى أصبح ترجمان القرآن وحبر الأمة وعُدَّ من المكثرين لرواية الحديث.

عاش ابن عباس بعد وفاة النبي ﷺ ثمانية وخمسين عاماً هيأت له أسباب الأخذ والتحمل عن كبار الصحابة وصغارهم. روى الدارمي في مسنده عن عبد الله بن عباس أنه قال: (لما قبض رسول الله ﷺ قلت لرجل من الأنصار هلم فلنسأل أصحاب النبي ﷺ فإنهم اليوم كثير. قال: واعجباً لك، أترى الناس يفتقرون إليك، قال: فتركت ذلك الرجل وأقبلت أسأل، فإنْ كان لَيبلُغني الحديث عن رجل فآتي بابه وهو قائلٌ، فأتوسَّدُ ردائي على بابه يَسْفي الريحُ عليَّ من التراب فيخرج فيراني، فيقول: يا ابن عم رسول الله ﷺ، ما جاء بك؟ هلا أرسلت إلي فآتيك، فأقول: لا، أنا أَحَقُّ أن آتيك

فأسألك عن الحديث، فعاش ذلك الرجل الأنصاري حتى رآني وقد اجتمع الناس حولي يسألونني. فقال: هذا الفتى كان أعقل مني).

من هذا الأثر يمكنك أن تستخلص مقدار عقله، وحرصه على جمع الحديث، وتفانيه فيه، كما يؤخذ منه مبلغ ما وصل إليه ابن عباس من الإمامة في الحديث، والعمل على نشره، حتى كان الناس يجتمعون إليه، ويستمعون لحديثه، وهذا عمر بن الخطاب على مهارته وحذقه، واجتهاده لله وللمسلمين، كان إذاجاءته قضية معضلة قال لابن عباس: إنها قد طرأت علينا أقضية وعضل، فأنت لها ولأمثالها ويأخذ بقوله.

فاق ابن عباس غيره في العلم والفقه والحديث والتأويل والحساب والفرائض والعربية حتى لقد كان يجلس يوماً لا يذكر فيه إلا الفقه، ويوماً التأويل، ويوماً المغازي، ويوماً أيام العرب. قالوا: وما جلس إليه عالم قط إلا خضع له، ولا سأله إلا وجد عنده علماً، حتى قال طاوس وقد قيل له: لَزِمتَ هذا الغلام وتركت الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ: (إني رأيتُ سبعين رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ إذا تدارؤوا في أمر صاروا إلى قول ابن عباس).

وقصارى القول أن ابن عباس كان أمة وحده في العلم والحديث روي له ألف وستمائه وستون حديثاً. اتفق الشيخان على رواية خمسة وتسعين منها، وانفرد البخاري بمائة وعشرين، ومسلم بتسعة وأربعين.

استعمله عليٌّ رضي الله عنه على البصرة فبقي أميراً عليها، ثم فارقها قبل مقتل علي، وعاد إلى الحجاز فقضى أخريات أيامه يعلم الناس بمكة، وتوفي بالطائف سنة ثمانية وستين من الهجرة، فرضيَ الله عنه.

عبد الله بن عمر بن الخطاب:

أسلم عبد الله قديماً وهو صغير وهاجر مع أبيه وقيل قبله. وشهد الخندق وما بعدها من المشاهد مع رسول الله ﷺ. ومن بعده شهد اليرموك وفتح مصر وأفريقية وكان شديد الاتباع لرسول الله ﷺ.

روى عن النبي ﷺ وعن أبيه وعمه زيد وأخته حفصه أم المؤمنين وأبي بكر وعثمان وعلي وبلال وزيد بن ثابت وصهيب وابن مسعود وعائشة ورافع بن خديج وغيرهم.

وروى عنه خلق كثير، فمن الصحابة: ابن عباس وجابر والأغر المزني وغيرهم. ومن التابعين أولاده الأربعة: بلال وحمزة وسالم وعبد الله، ومولاه نافع وأسلم - مولى عمر - وزيد وخالد ابنا أسلم، وعروة بن الزبير وغيرهم.

قال الزبير بن بكار: إنْ كان ابن عمر ليحفظ ما سمع من رسول الله ﷺ ويسأل من حضر ـ إذا غاب ـ عن قوله وفعله. وروى البيهقي في «المدخل» عن الزهري أنه قال: لا يُعدَلُ برأي ابن عمر، فإنه أقام بعد رسول الله ﷺ ستين سنة فلم يَخْفَ عليه شيء من أمره ولا من أمر أصحابه.

وعن مالك أنه قال: (أقام ابن عمر بعد وفاة رسول الله ﷺ ستين سنة تَقْدمُ عليه وفود الناس).

وقد جَنَّبَهُ أبوه الخلافة وجعل رأيه في أصحاب الشورى استشارياً فقط، لذلك كان ابن عمر على الحياد، فلم يدخل في شيء من الفتن والحروب التي وقعت بين الصحابة، بل توفر على العلم والعبادة.

وقد كان عبد الله معدوداً من المكثرين لرواية الحديث وساعده على ذلك أمور:

١ - تقدم إسلامه، وانفساح عمره، وشدة ملازمته لمجالس النبي ﷺ، وكثرة اتباعه لآثاره، وسؤاله إذا غاب عن قوله وفعله، مما يدل على شغفه بالعلم وتحصيل الحديث.

٢ - اتصاله بالنبي ﷺ بطريق المصاهرة، فقد كانت أخته حفصه زوجة النبي ﷺ فسهل عليه مخالطته في أغلب الأوقات.

٣- زهده في الدنيا والإمارة،ومجانبته للحروب التي شبت بين الصحابة مما أعانه على التفرغ للحديث تحملاً وأداء.

لهذا كله كان عبد الله من المكثرين، فقد روي له ألف وستمائة وثلاثون حديثاً اتفق الشيخان من ذلك على مائة وسبعين، وانفرد البخاري بواحد وثمانين، ومسلم بواحد وثلاثين. والباقي رواه غيرهما.

كانت وفاته رضي الله عنه سنة ٧٣ هـ بعد مقتل عبد الله بن الزبير بثلاثة أشهر وعمره سبع وثمانون عاماً على المعتمد.

عبد الله بن عمرو بن العاص:

هو أبو محمد عبد الله بن عمرو بن العاص القرشي السهمي. أسلم قبل أبيه وكان مجتهداً في العبادة مكثراً لتلاوة القرآن كما كان أكثر الناس أخذاً للحديث والعلم عن رسول الله ﷺ.

روى البخاري في كتاب العلم أن أبا هريرة قال: (ما كان أحد أكثر حديثاً عن رسول الله ﷺ مني إلا ما كان من عبد الله بن عمرو فإنه كان يكتب ولا أكتب)، وجاء

عنه أنه كان يكتب كل ما يسمعه من النبي ﷺ فنهته الصحابة عن ذلك وقالوا له: إن النبي ﷺ يتكلم في الغضب والرضا فلا تكتب كل ما تسمع، فسأل النبي ﷺ عن ذلك فقال له: «اكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج منهما إلا حق» -يعني شفتيه الكريمتين-، وجاء عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت لعروة بن الزبير: (يا ابن أختي بلغني أن عبد الله بن عمرو مارٌّ بنا إلى الحج فالْقَهُ فاسأله فإنه قد حمل عن النبي ﷺ علماً كثيراً) ـ وروى ابن سعد عن مجاهد أنه قال: (رأيت عند عبد الله بن عمرو بن العاص صحيفة فسألت عنها، فقال: هذه الصادقة، فيها ما سمعتُ من رسول الله ﷺ، ليس بيني وبينه فيها أحد).

وروى ابن سعد أيضاً عن عبد الله بن عمرو أنه قال: (استأذنت النبي ﷺ في كتابة ما سمعت منه فأذن لي فكتبته، فكان عبد الله يسمي صحيفته تلك: الصادقة) أ هـ.

من هذا ترى أن عبد الله بن عمرو قد توفر لديه من أسباب التحمل للحديث والإكثار منه ما لم يتوفر لغيره، فقد تقدم إسلامه وحفظ الحديث بصدره ووعاه بقلبه ودَوَّنه بقلمه في الصحف حتى نُقل عنه أنه قال: (حفظت عن النبي ﷺ ألف مثل).

لماذا كانت مروياته أقل من مرويات أبي هريرة.

وقد يقال: إن أبا هريرة لم يكن يكتب الحديث مثل عبد الله بن عمرو ومع ذلك ما روي عنه أضعاف ما روي عن عبد الله، فكيف يتفق هذا مع ما رواه البخاري عن أبي هريرة. والجواب أن السبب في كثرة ما روي عن أبي هريرة وقلة ما روي عن عبد الله بن عمرو مع أنه تحمل أكثر منه أمور منها:

أولاً: أن عبد الله كان مشتغلاً بالعبادة أكثر من اشتغاله بالتعليم فَقلَّت الروايةُ

عنه بخلاف أبي هريرة فقد كان متصدراً للتحديث.

ثانياً: أن عبد الله كان أكثر مقامه بعد الفتوح بمصر أو بالطائف، ولم تكن الرحلة إليهما من طلاب الحديث كالرحلة إلى المدينة. وكان أبو هريرة مقيماً بالمدينة متصدياً للفتوى والتحديث إلى أن مات، ويظهر هذا في كثرة مَنْ أخذ الحديث عن أبي هريرة فقد بلغ عددهم ثمانمائة نفس من التابعين ولم يقع هذا لغيره من الصحابة على ما سبق لك.

ثالثاً: ما اختص به أبو هريرة من دعوة النبي ﷺ بألا ينسى ما يُحَدِّثُه به كما سبق ذلك في ترجمته.

رابعاً: أن عبد الله بن عمرو كان قد وقع له بالشام كُتبٌ من كتبِ أهل الكتاب فكان ينظر فيها ويحفظ منها جملاً ويحدث بها فَتجنَّبَ التحمل عنه لذلك كثير من أئمة التابعين.

لهذه الأسباب نجد أن ما روي عنه من الحديث لا يتناسب مع غزارة علمه وكثرة ما حفظه وكتبه عن رسول الله ﷺ فلم يصلنا عنه سوى سبعمائة حديث اتفق الشيخان منها على سبعة عشر، وانفرد البخاري بثمانية، ومسلم بعشرين.

روى عن عبد الله بن عمرو خلائق كثيرون من التابعين منهم سعيد بن المسيب وعروة وأبو سلمة وحميد ابنا عبد الرحمن، ومسروق وغيرهم، وتوفي بمصر على أحد الأقوال سنة ٦٣ من الهجرة عن اثنين وسبعين عاماً عاش منها بعد الرسول ﷺ ثلاثة وخمسين عاماً.

عبد الله بن مسعود:

هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن مسعود ينتهي نسبه إلى هذيل بن مدركة بن إلياس واسم أمه أم عبد بنت عبد ود بن سواء بن هذيل أيضاً أسلمت وهاجرت.

أسلم عبد الله قديماً حين أسلم سعيد بن زيد قبل إسلام عمر بن الخطاب بزمان. جاء عنه أنه قال: (لقد رأيتني سادس ستة ما على الأرض مسلم غيرنا) وهاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة،وشهد مع رسول الله ﷺ بدراً وأُحداً والخندق وبيعة الرضوان وسائر المشاهد. وهو الذي أجهز على أبي جهل يوم بدر كما شهد اليرموك. وهو صاحب نعل رسول الله ﷺ كان يلبسه إياها إذا قام، فإذا خلعها وجلس جعلها ابن مسعود في ذراعه. وكان كثير الدخول على رسول الله ﷺ والخدمة له، ففي الصحيحين أن أبا موسى الأشعري قال: «قدمت أنا وأخي من اليمن فمكثنا حيناً لا نرى ابن مسعود وأمه إلا من أهلِ بيتِ رسول الله ﷺ لما نرى من كثرة دخوله ودخول أمه على رسول الله ﷺ ولزومه له».

ولتقدم إسلامه وملازمته للنبي ﷺ وشغفه بالأخذ عنه عدد من كبار الصحابة، وفضلائهم وفقهائهم، والمقدمين في القرآن والحديث والفتوى، حتى شهد له رسول الله ﷺ بالنبوغ في القرآن وعلومه فقال فيما رواه الشيخان: (خذوا القرآن من أربعة: من عبد الله، وسالم مولى أبي حذيفة، ومعاذ، وأبي بن كعب)، ونطق هو رضي الله عنه متحدثاً بنعمة العلم فقال كما جاء في صحيح مسلم: (والذي لا إله غيره ما من كتابِ الله سورةٌ إلا وأنا أعلم حيث أُنزلت، وما من آية إلا وأنا أعلم فيم نزلت، ولو علمت أن أحداً هو أعلم بكتاب الله مني تبلغه الإبل لركبت إليه).

وقد عرف كبار الصحابة له أيضاً منزلته في العلم ورسوخه فيه، فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يكتب إلى أهل الكوفة: (بعثت إليكم عماراً أميراً، وعبد الله بن مسعود معلماً ووزيراً، وهما من النجباء من أصحاب رسول الله ﷺ، ومن أهل بدر، فاقتدوا بهما، وقد آثرتكم بعبد الله على نفسي).

وناهيك بهذه الشهادة من مثل عمر بن الخطاب لا سيما قوله: «وقد آثرتكم بعبد الله على نفسي»، وعمر هو عمر الذي جعل الله الحق على لسانه وقلبه والذي كان يرى الرأي فينزل به القرآن، وإنما يعرف الفضل من الناس ذووه. وهذا أبو الدرداء يقول حين توفي ابن مسعود (ما ترك بعده مثله).

روى الحديث عن ابن مسعود خلق كثير: فمن الصحابة: أبو موسى الأشعري وعمران بن حصين وابن عباس وابن عمر وجابر وأنس وابن الزبير وأبو سعيد الخدري وأبو هريرة وأبو رافع إلى غير هؤلاء من الأعلام، ومن التابعين: علقمة وأبو وائل والأسود ومسروق وعبيدة وقيس بن أبي حازم وغيرهم من كبار التابعين.

مروياته:

روي لابن مسعود عن النبي ﷺ ثمانمائة وثمانية وأربعون حديثاً، اتفق الشيخان منها على أربعة وستين حديثاً، وانفرد البخاري بأحد وعشرين حديثاً، ومسلم بخمسة وثلاثين حديثاً.

كنا ننتظر أن يبلغنا عن ابن مسعود أضعاف ما بلغنا عنه من الحديث، لما رأيت من تقدم إسلامه وشدة ملازمته لرسول الله ﷺ، الأمر الذي مكنه من تحمل كثير عنه، فقد شاهد عصر النبوة جميعه، مع ملازمته للنبي ﷺ وشدة حرصه على الحديث وقوة

حفظٍ وزهدٍ في الدنيا وتفرغٍ لتحصيل العلم، ولكنه لم تطل به الحياة بعد رسول الله ﷺ، فلم يتسع له زمن الأداء كما اتسع لأبي هريرة وغيره ممن ذكرنا.

توفي ابن مسعود بالكوفة، وقيل بالمدينة سنة ٣٢ هـ عن بضع وستين سنة.

تفاوت الصحابة في رواية الحديث:

كان الصحابة رضي الله عنهم معنيين بحفظ الحديث، وكانوا يختلفون في ذلك قلة وكثرة ولذلك أسباب خاصة تعرف من ترجمة كل صحابي على حدة، وأسباب عامة نجملها لك فيما يلي:

أولاً: الاشتغال بالخلافة والحروب عاق كثيراً من الصحابة عن تحمل الحديث وروايته كما في الخلفاء الأربعة وطلحة والزبير، وعلى العكس من ذلك مكن التفرغ من هذه الشواغل لكثير من الصحابة في كثرة التحمل والأداء كما في أبي هريرة وعائشة وابن عمر وغيرهم.

ثانياً: طول الصحبة للنبي ﷺ وكثرة ملازمته سفراً وحضراً وانفساح الأجل بعد وفاته كان مدعاة للإكثار من تحمل الحديث وروايته كما في ابن مسعود وأبي هريرة وجابر بن عبد الله وأنس وابن عمر وغيرهم، ولهذا قلَّت أو عدمت رواية من مات في عهد النبوة أو بعدها بقليل كما قلَّت رواية من لم تطل صحبته أو لم تكثر ملازمته للنبي ﷺ.

ثالثاً: تجدد الحوادث واحتياج الناس إلى بيان أحكامها كان سبباً في كثرة الأداء والرواية، والحرص على طلب الحديث، حتى تُعرفَ الأحكامُ الشرعية في مثل هذه الحوادث، التي لم يكن لهم عهد بمثلها فلهذا بادر الصحابة إلى إظهار ما عندهم من

السنن وتلقاها عنهم الناس بقبول ولهفة.

رابعاً: وقوع الفتنة وظهور الكذب في الحديث من بعض الفرق كالشيعة والخوارج الذين وضعوا كثيراً من الحديث كان داعياً إلى قلة الأحاديث التي تروى، وإلى التشدد فيمن يؤخذ عنه الحديث من الرواة.

ومن هنا قَلَّتْ مرويات علي رضي الله عنه مما جعل أصحاب الحديث يستمدون أحاديثه من أصحاب ابن مسعود كعبيدة السلماني وشريح وأبي وائل ونحوهم أو من أهل بيته الأثبات ويرفضون ما وراء ذلك.

خامساً: كثرة الأتباع وقلتهم ونشاطهم وخمولهم كان له أكبر الأثر في كثرة الرواية وقلتها عن الصحابة رضي الله عنهم. فعثمان بن عفان لم يصلنا معظم أحاديثه لقلة الآخذين عنه بسبب انشغاله بالخلافة والحروب وجمع القرآن الكريم إلى غير ذلك.

سادساً: قوة الحافظة وتقييد الحديث بالكتابة كانا عاملين من عوامل الإكثار من الرواية. كما في أبي هريرة وعبد الله بن عمرو بن العاص ومن على شاكلتهما.

سابعاً: التفرغ للعبادة والتحرج من رواية الحديث على غير اللفظ المسموع من رسول الله ﷺ جعل كثيراً من الصحابة يحجمون عن رواية الأحاديث أو يُقِلُّونَ منها مع اعتمادهم في تبليغ الحديث على كثرة أصحاب رسول الله ﷺ الذين نصبوا أنفسهم لمهمة الرواية والأداء.

ثامناً: أن يكون الطريق إلى الصحابي ضعيفاً فيترك أصحاب الصحيح تخريج حديثه كما في أبي عبيدة بن الجراح أمين هذه الأمة لم يصح إليه الحديث من جهة الناقلين

فلم يخرج له في الصحيحين [1].

أكثر الصحابة حديثاً:

هذه خلاصة العوامل التي أدت إلى كثرة الحديث عن بعض الصحابة وقِلَّتِهِ عن البعض الآخر، لـذا كـان منهم المكثر ومنهم المقل فأكثرهم حديثاً أبو هريرة، ثم عبد الله بن عمر بن الخطاب، ثم أنس بن مالك، ثم ابن عباس، ثم جابر بن عبد الله، ثم أبو سعيد الخدري، ثم عائشة أم المؤمنين. وليس في الصحابة من يزيد حديثه على ألف غير هؤلاء.

قال الإمام محمد بن سعد في «الطبقات»: ـ (قال محمد بن عمر الأسلمي: إنما قَلَّت الرواية عن الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ لأنهم ماتوا قبل أن يحتاج إليهم وإنما كثرت عن عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب لأنهما وليا فَسُئلا وقضيا بين الناس، وكل أصحاب رسول الله ﷺ كانوا أئمة يقتدى بهم، ويحفظ عنهم ما كانوا يفعلون ويستفتون فيفتون، وسمعوا أحاديث فأدوها فكان الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ أقل حديثاً عنه من غيرهم مثل أبي بكر وعثمان وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف وأبي عبيدة بن الجراح وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وأبي بن كعب وسعد بن عبادة وعبادة بن الصامت وأسيد بن حضير ومعاذ بن جبل ونظرائهم، فلم يأت عنهم من كثرة الحديث مثل ما جاء عن الأحداث من أصحاب رسول الله ﷺ، مثل جابر بن عبد الله وأبي سعيد الخدري وأبي هريرة وعبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عمرو بن العاص وابن عباس ورافع بن خديج وأنس

---

(١) معرفة علوم الحديث للحاكم ص ١٣٠.

والبراء بن عازب ونظرائهم، لأنهم بقوا وطالت أعمارهم في الناس، فاحتاج الناس إليهم، فمضى كثير من أصحاب رسول الله ﷺ قبله وبعده بعلمه لم يؤثر عنه شيء، ولم يحتج إليه لكثرة أصحاب رسول الله ﷺ، ومنهم من لم يحدث عن رسول الله ﷺ شيئاً، ولعله أكثر له صُحبةً ومجالسة وسماعاً من الذي حدث عنه، ولكنا حملنا الأمر في ذلك منهم على التوقي في الحديث، وعلى أنه لم يحتج إليه لكثرة أصحاب رسول الله ﷺ، وعلى الاشتغال بالعبادة والأسفار في الجهاد في سبيل الله حتى مضوا فلم يحفظ عنهم عن النبي ﷺ) أهـ.

المبحث السادس

الرد على شبهة وردت على عدالة الصحابة وضبطهم لرواية الحديث

١ - ربما يقول قائل: كيف يعتمد في نقل السنة المشرفة على الصحابة من غير أن نضعهم في ميزان التعديل والتجريح، وهل صنيع أبي بكر وعمر وعلي في اشتراطهم الشهادة أو اليمين على سماع الصحابة للحديث من رسول الله إلا إقراراً لهذا المبدأ وهو البحث عن أحوالهم كسائر الرواة.

والجواب: أننا لم نَبلُغْ بهم درجةَ النبوة ولكننا أثبتنا لهم حالة من الاستقامة في الدين تمنعهم من تَعمُّدِ الكذبِ على رسول الله ﷺ. وهذه الحالة دل عليها القرآن الكريم والسنة الصحيحة وإجماع مَنْ يُعتَدُّ به من المسلمين قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة].

فهذه الآية تدل على أن الله تعالى رضي عن أصحاب رسول الله ﷺ السابقين منهم إلى الإسلام واللاحقين وهو سبحانه لا يرضى عن الكاذب وقد قدمنا لك الروايات الصحيحة عن رسول الله ﷺ بمدحهم والثناء عليهم،أما من لابس الفتن منهم كطلحة والزبير ومعاوية وعلي رضي الله عنهم فكانوا في ذلك مجتهدين يرى كُلٌّ منهم أن الحق

في جانبه وعليه أن يدافع عنه وقد تقرر في الشريعة أن المجتهد مأجور على كل حال أخطأ أم أصاب إلا أنه إنْ أصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر واحد، وقد أخبر الله تعالى بأنه رضي عن الذين بايعوا نبيه ﷺ تحت الشجرة فقال: ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴿١٨﴾ ﴾ [الفتح] وكان من هؤلاء المبايعين الذين رضي عنهم الله سبحانه مَنْ دخل الفتن كطلحة والزبير رضي الله عنهما فثبت بهذا أن الصحابة كلهم عدول من لابس الفتن وغيرهم.

وأما ما وقع من الخلفاء الثلاثة أبي بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم فإنما كان من قبيل التثبت عند قيام عارض الشك في ضبط الراوي لا في صدقه وعدالته. يدل على ذلك قول بعضهم للراوي (أما إني لم أتهمك ولكني أحببتُ أن أَتثبَّت) ولئلا يتساهل الناس في باب الرواية على ما قدمنا.

هذا وقد اعتاد فريق من كتاب هذا العصر أن يطلقوا ألسنتهم في أصحاب رسول الله ﷺ كمعاوية وعمرو بن العاص وأبي هريرة رضي الله عنهم وهذا إثم كبير باتفاق علماء المسلمين. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «من لعن أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ ورضي الله عنهم كمعاوية وعمرو بن العاص، أو من هو أفضل من هؤلاء كأبي موسى الأشعري وأبي هريرة، أو من هو أفضل من هؤلاء كطلحة والزبير وعثمان وعلي وأبي بكر وعمر وعائشة فإنه يستحق العقوبة البليغة باتفاق المسلمين، وتنازعوا هل يُعاقَبُ بالقتل أو ما دون القتل وقد ثبت في الصحيح أنه ﷺ قال: (لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أُحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه)، واللعنة أعظم من السب، وقد قال النبي ﷺ: (لَعنُ المؤمن كقتله) وأصحابه خيار

المؤمنين كما قال: (خير القرون قرني ثم الذين يلونهم) وكل من رآه وآمن به فله من الصحبة بقدر ذلك» أهـ[1].

٢- كيف نعتمد في نقل السنة وروايتها على الصحابة وهم بشر كغيرهم من الرواة يقع منهم الخطأ ويدركهم السهو والنسيان.

والجواب: أن هذا قول مَنْ لم يقف على مبلغِ استعدادهم الفطري للحفظ، وحَمِيَّتِهم الدينية في المحافظة على حديث رسو ل الله ﷺ. فالصحابة رُزقوا حوافظَ قوية، وقرائح وقَّادة، ساعدتهم كثيراً على حفظ الحديث وضبطه، وهم يعلمون أن الحديث أصل من أصول الدين، فضبطوه بالمذاكرة، وتعهدوه بالدرس والتعليم، حتى تثبتوا منه كل التثبت. يضاف إلى ذلك أن الخلفاء الراشدين انتهجوا في رواية السنة خطة حكيمة، فسنوا للناس سنة التثبت، وطالبوا الراوي بالبينة عند عروض الشك. وكل هذه العوامل أثرت في اتجاه الرواية، فلم يندفع الصحابة في الإكثار الذي لا يُؤمَنُ عِثارهُ. لذلك قَلَّ السهو والنسيان منهم وانعدم الخطأ أو ندر وكان أحدهم إذا سها أو أخطأ في الرواية ذَكَّرهُ غيره ممن يحفظ الحديث على وجهه. وما جاء من اختلاف بعض الأحاديث فذلك من قبيل الرواية بالمعنى، وقد أجازها علماء المسلمين من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين كأبي حنيفة والشافعي والحسن البصري. ويُستأنَسُ لذلك بما رواه الطبراني في معجمه الكبير وابن منده في معرفة الصحابة من حديث سليمان ابن أكيمة الليثي أنه قال: قلت يا رسول الله إني أسمع منك الحديث لا أستطيع أن أؤديه كما أسمع منك أزيد حرفاً أو أنقص حرفاً فقال: إذا لم تُحِلُّوا حراماً أو تُحرموا حلالاً

---

(١) مختصر الفتاوى المصرية ص ٤٧٨ وما بعدها.

وأصبتم المعنى فلا بأس.

٣- فإن قلت: ما تقول في الحديث الصحيح وهو قوله ﷺ: «لَيردنَّ عليَّ الحوض أقوام ثم ليختلجن دوني فأقول: يا رب أصحابي أصحابي فيقال لي: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم» وهو يفيد أن فريقاً من الصحابة قد ارتد بعد وفاته ﷺ وهذا ينافي القول بعدالتهم على الإطلاق.

والجواب: أن النبي ﷺ لم يرد بالأقوام في الحديث أصحابه الذين صدقوا في الإيمان وإنما أراد بهم نفراً قليلاً كانوا من المنافقين الذين لم يخلصوا الإيمان وفيهم يقول الله تعالى: ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ [التوبة] وهؤلاء كانوا يشهدون مع رسول الله ﷺ المشاهد ويحضرون معه المغازي لا لإعلاء كلمة الله بل لأغراض أخرى كطلب الغنيمة أو تثبيط المؤمنين أو نحو ذلك فكانوا في الظاهر معدودين من الصحابة وهم في الواقع كفار، وقد أظهروا ما كانوا يضمرون بعد وفاة رسول الله ﷺ من الكفر والعداوة للمؤمنين وارتدوا عن الإسلام، وأما الأصحاب الصادقون فلم يكن من أحد منهم ردة أصلاً وجميعهم مات على الإيمان والحمد لله.

المبحث السابع

تراجم لبعض رواة الحديث من التابعين

من هم التابعون: قال الخطيب: التابعي مَنْ صَحِبَ صحابياً، ولا يكتفى فيه بمجرد اللقي، بخلاف الصحابي مع النبي ﷺ، فإنه يكتفى فيه بذلك، لشرف النبي ﷺ، وعلو منزلته، فالاجتماع به يؤثر في النور القلبي أضعاف ما يؤثره الاجتماع الطويل بالصحابي وغيره من الأخيار. وقال أكثر المحدثين: هو من لقي صحابياً وإن لم يصحبه ولذلك ذكر مسلم وابن حبان «الأعمَش» في طبقة التابعين لأن له لقياً وحفظاً، رأى أنس بن مالك وإن لم يصح له سماع المسند عنه. وعَدَّ الحافظ عبد الغني فيهم «يحيى بن أبي كثير» لكونه لقي أنساً. وعد فيهم أيضاً «موسى بن أبي عائشة» لكونه لقي عمرو بن حريث. واشترط ابن حبان التمييز عند اللُّقِيِّ فإنْ كان صغيراً لم يضبط فلا عبرة برؤيته كخلف بن خليفة عَدَّهُ من أتباع التابعين وإن رأى عمرو بن حريث لكونه كان صغيراً لا يميز، قال العراقي: «وما اختاره ابن حبان له وجه كما اشترط في الصحابي رؤيته للنبي ﷺ وهو مميز». قال: «وقد أشار النبي ﷺ إلى الصحابة والتابعين بقوله (طوبى لمن رآني وآمن بي وطوبى لمن رأى من رآني..) الحديث. فاكتفى فيهما بمجرد الرؤية» (التدريب ص ٢١٢).

هذا والتابعون كثيرون لا يحصون لأن أصحاب رسول الله ﷺ تفرقوا في

الأمصار المختلفة وكل من التقى بواحد منهم فهو تابعي.

هذا ومن أشهر الرواة من التابعين بالمدينة: سعيد بن المسيب المتوفى سنة (٩٣هـ) وعروة بن الزبير المتوفى سنة (٩٤) وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المتوفى سنة (٩٤) وعبد الله بن عبد الله بن عتبة المتوفى سنة (٩٩) وسالم بن عبد الله بن عمر المتوفى سنة (١٠٦) وسليمان بن يسار المتوفى سنة (٩٣) والقاسم بن محمد ابن أبي بكر المتوفى سنة (١١٢) ونافع مولى ابن عمر المتوفى سنة (١١٧) وابن شهاب الزهري المتوفى سنة (١٢٤) وأبو الزناد المتوفى سنة (١٣٠).

ومن أشهرهم بمكة: عكرمة مولى ابن عباس (١٠٥) وعطاء بن أبي رباح (١١٥) وأبو الزبير محمد بن مسلم (١٢٨).

ومن أشهرهم بالكوفة: الشعبي عامر بن شراحيل (١٠٤) وإبراهم النخعي (٩٦) وعلقمة بن قيس بن عبد الله النخعي (٦٢).

ومن أشهرهم بالبصرة: الحسن بن أبي الحسن البصري (١١٠) ومحمد بن سيرين (١١٠) وقتادة بن دعامة السدوسي (١١٧).

ومن أشهرهم بالشام: عمر بن عبد العزيز(١٠١) ومكحول (١١٨) وقبيصة بن ذؤيب (٨٦) وكعب الأحبار (٣٢).

ومن أشهرهم بمصر: أبو الخيرمرثد بن عبد الله اليزني (٩٠) ويزيد ابن أبي حبيب (١٢٨).

ومن أشهرهم باليمن: طاوس بن كيسان اليماني الحميري (١٠٦) ووهب بن منبه (١١٠).

وقد تكفلت كتب الرجال بتراجمهم وبيان من أخذوا عنه ومن أخذ عنهم، ولنترجم باختصار لطائفة يسيرة منهم فنقول:

ابن شهاب الزهري:

هو أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب بن عبد الله بن الحارث بن زهرة القرشي الزهري المدني. سكن الشام. يقولون تارة: الزهري، وتارة: ابن شهاب نسبة إلى جد جده، وهو معدود في صغار التابعين. سمع أنس بن مالك وسهل بن سعد والسائب بن يزيد وشبيباً أبا جميلة وعبد الرحمن بن أزهر وربيعة بن عتاد ومحمود بن الربيع وأبا الطفيل وغيرهم من الصحابة، كما سمع من كبار التابعين. وروى عنه الحديث خَلْقٌ كثير من كبار التابعين وصغارهم، ومن أتباع التابعين وشيوخهم.

اتفق العلماء على إمامته في الحديث وكثرة حفظه له وتمكنه فيه مع أمانته وثقته. وشهادات المحدثين له أشهر من أن تذكر فهذا عمرو بن دينار يقول: «ما رأيت أَنَصَّ للحديث من الزهري». وهذا إبراهيم بن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف يقول: قلت لأبي: بِمَ فاقكم الزهريُّ؟ قال: كان يأتي المجالس من صدرها ولا يأتيها من خلفها ولا يبقي في المجلس شاباً إلا سأله ولا كهلاً إلا سأله ولا فتى إلا سأله ولا عجوزاً ولا كهلة إلا سألها حتى يحاور رَبَّاتِ الحِجال»، وقال الليث بن سعد: ما رأيت عالماً قط أجمع من ابن شهاب ولا أكثر علماً منه». ويروي البخاري عن علي بن المديني أنه قال: «للزهري نحو ألفي حديث» وهذا أحمد بن الفرات يقول: «ليس فيهم أجود مسنداً من الزهري».

رزق الزهري حافظة قوية متقدة حتى لقد روى البخاري في تاريخه أنه حفظ القرآن في ثمانين ليلة.وقال الزهري: ما استودعت حفظي شيئاً فخانني. وعن سعد بن إبراهيم أنه قال: «ما أرى أحداً بعد رسول الله ﷺ جمع ما جمع الزهري».

وقد جمع الزهري إلى حفظ الحديث كتابته وتدوينه حتى فاق أقرانه، قال صالح بن كيسان: كنت أطلب العلم أنا والزهري فقال: تعال نكتب السنن فكتبنا ما جاء عن النبي ﷺ، ثم قال تعال نكتب ما جاء عن الصحابة فكتبَ ولم نكتبْ فنجحَ وضَيَّعنا.

لقد كان ابن شهاب أول من كتب الحديث وجمعه بأمر عمر بن عبد العزيز أيام خلافته، وبالجملة فقد كان ابن شهاب أمة وحده في العلم والحفظ والضبط، جَمَّاعاً للحديث ثقة فيه. سأله هشام بن عبد الملك يوماً أن يملي على بعض ولده شيئاً فأملى عليه أربعمائة حديث، ثم لقيه هشام بعد شهر أو نحوه فقال له: إن ذلك الكتاب قد ضاع فدعا بكاتب فأملاها عليه، ثم قابل ذلك بالكتاب الأول فما غادر منها حرفاً واحداً.

توفي الزهري سنة مائة وأربع وعشرين ودفن بشغب آخر حدّ الحجاز وأول حدّ فلسطين. قال الزبير بن بكار: مات وهو ابن اثنتين وسبعين سنة. انظر: تهذيب الأسماء واللغات (ج ١ - ص ٩٠) وتهذيب التهذيب (٩ - ٤٤٥).

عكرمة مولى ابن عباس:

هو التابعي الكبير أبو عبد الله عكرمة مولى ابن عباس وراويته، أصله بربري من أهل المغرب تَمَلَّكه عبد الله بن عباس وهو والٍ على البصرة لعلي بن أبي طالب رضي الله

عنه. وعني بتعليمه القرآن والسنن أشد العناية حتى حدث عكرمة عن نفسه أن ابن عباس كان يضع في رِجْله القيدَ ويعلمه القرآن والسنن. وما زال عكرمة ينهل من مناهل ابن عباس حتى تأهل للفُتيا، وأذنه مولاه بها فقصده الناس من كل صوب وطرقوا بابه للرواية والفتيا، كان إلى جانب علمه بالسنة والفقه من مشاهير القراء والمفسرين. وقد ظل على الرق حتى مات ابن عباس وصار إلى ولده علي فباعه إلى خالد بن يزيد بن معاوية بأربعة آلاف دينار، فجاء عكرمة إلى علي وقال له ما خير لك. بعت علم أبيك بأربعة آلاف دينار، فاستقال علي من بيعه وأعتقه.

عاش عكرمة إلى سنة ١٠٥ من الهجرة وله من العمر نيف وثمانون سنة.

شيوخه وتلاميذه ومنزلته في الرواية:

أخذ عكرمة الحديث عن كثير من الصحابة منهم عبد الله بن عباس مولاه والحسن بن علي وأبو قتادة وابن عمر وأبو هريرة وأبو سعيد ومعاوية وابن عمرو بن العاص.

وتلقى عنه الحديث جماعات من التابعين منهم أبو الشعثاء والشعبي والنخعي وأبو إسحاق السبيعي وابن سيرين وعمرو بن دينار وكثير من التابعين وغيرهم.

وقد وثق الأئمة والمحققون عكرمة واحتجوا به، ومن هؤلاء: البخاري وأصحاب السنن، ولكن مسلماً تركه لم يخرج له إلا حديثاً واحداً في الحج مقروناً بسعيد بن جبير. وإنما تركه لطعنِ طائفةٍ من العلماء فيه بأنه كذاب، وبأنه كان يرى رأي الخوارج، وبأنه كان يقبل جوائز الأمراء. وقد صنف كثير من الأئمة كتباً في الذَّبِّ عن عكرمة منهم أبو جعفر بن جرير الطبري ومحمد بن نصر المروزي وأبو عبد الله بن منده

وأبو حاتم بن حبان وأبو عمر بن عبد البر وغيرهم، وممن تصدى للدفاع عنه أيضاً الحافظ ابن حجر في مختصره لتهذيب الكمال وفي مقدمته لفتح الباري، وكلهم مجمعون على تبرئته من الكذب وأن الأثر الوارد عن ابن عمر أنه قال لنافع: «لا تكذب عليَّ كما كذب عكرمة على ابن عباس» لم يثبت، لأنه من رواية أبي خلف الجزار عن يحيى البكاء أنه سمع ابن عمر يقول ذلك. ويحيى البكاء متروك الحديث. ومن المحال أن يُجَرَّحَ العَدْلُ بكلام المجروح. وهم مجمعون أيضاً على أنه لم يثبت عنه أنه كان يرى رأي الخوارج وغاية ما هناك أنه كان يرى في بعض المسائل ما يوافق آراءهم من غير أن يقصد إلى هذا الوفاق ولكن بناء على ما قام لديه من الأدلة فنسبوه إليهم عن غير بينة ولا برهان، ولو كان من ادعى عليه أنه ينتحل مذهباً رديئاً يعد مجروحاً لمجرد الدعوى لسقطت عدالة أكثر المحدثين لأنه ما من أحد منهم إلا وقد نسبه قوم إلى ما يرغب به عنه.

وأما قبول جوائز الأمراء فالأئمة والنقاد وجماهير المحدثين لا يرون ذلك مانعاً من قبول الرواية،وهذا محمد بن شهاب الزهري كان في ذلك أشهر من عكرمة ومع ذلك لم يترك أحد من الأئمة الرواية عنه بسبب ذلك.

طرف من ثناء العلماء عليه:

قال البخاري: «ليس أحد من أصحابنا إلا احتج بعكرمة» وعن ابن معين: «إذا رأيت إنساناً يقع في عكرمة فاتهمه على الإسلام». وقال أبو عبد الله محمد بن نصر المروزي: «أجمع عامة أهل العلم على الاحتجاج بحديث عكرمة واتفق على ذلك رؤساء أهل العلم بالحديث من أهل عصرنا، منهم أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه

وأبو ثور ويحيى بن معين. ولقد سألت إسحاق عن الاحتجاج بحديثه فقال: «عكرمة عندنا إمام أهل الدنيا وتعجب من سؤالي إياه». وقال ابن منده: «عَدَّلَهُ أُمَّةٌ من التابعين تزيد على سبعين رجلاً من خيار التابعين، وهذه منزلة لا تكاد توجد لأحد من كبار التابعين على أن مَنْ جَرَّحه من الأئمة لم يمسك عن الرواية عنه ولم يستغن عن حديثه. وكان حديثه مُتَلَقى بالقبول قرناً بعد قرن إلى زمن الأئمة الذين أخرجوا الصحيح. على أن مسلماً وكان أسوأهم رأياً فيه قد أخرج له مقروناً بغيره» أ هـ.

وقال أبو عمر ابن عبد البر: «كان عكرمة من جلة العلماء ولا يقدح فيه كلام من تكلم فيه لأنه لا حجة مع أحد منهم» قال: «وزعموا أن مالكاً أسقط ذكر عكرمة من الموطأ ولا أدري ما صحته لأنه قد ذكره في الحج وصرح باسمه ومال إلى روايته عن ابن عباس وترك عطاءً في تلك المسألة مع كون عطاء أَجَلّ التابعين في علم المناسك» أ.

ومن ذلك يتضح أنه إذا روى الثقات عن عكرمة حديثاً فلا ينبغي أن يرتاب فيه (تهذيب الأسماء ١ - ٣٤٠ ومقدمة فتح الباري ٢-١٤٨ وما بعدها وتهذيب التهذيب ٧ - ٢٦٣).

عمر بن عبد العزيز:

هو أبو حفص عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص ابن أمية القرشي الأموي التابعي العظيم الخليفة الراشد والإمام العادل والعالم الكامل. ولد عمر بمصر ببلدة حلوان وأبوه أمير عليها سنة إحدى وستين. جمع القرآن وهو صغير وبعثه أبوه إلى المدينة يتأدب بها ويتعلم الدين ويحفظ السنن، فكان يختلف إلى عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، فلما توفي أبوه طلبه عبد الملك بن مروان إلى دمشق وزَوَّجه ابنته

فاطمة، وولي إمارة المدينة زمناً في خلافة الوليد ثم قدم الشام سنة ٩٣ وبويع بالخلافة سنة ٩٩.

سمع الحديث من أنس بن مالك والسائب بن يزيد ويوسف بن عبد الله بن سلام وخولة بنت حكيم وغيرهم من الصحابة، ومن التابعين كابن المسيب وعروة وأبي بكر بن عبد الرحمن والربيع بن سبرة وغيرهم. وروى عنه كثير من التابعين منهم: أبو سلمة بن عبد الرحمن وأبو بكر بن محمد ابن عمرو بن حزم والزهري ويحيى الأنصاري ومحمد بن المنكدر وحميد الطويل وآخرون.

أجمع العلماء على كثرة علمه وصلاحه وزهده وورعه وعدله وحرصه على اتباع آثار النبي ﷺ والخلفاء الراشدين. كان عمر كثير الاهتمام بحديث رسول الله ﷺ حفظاً وجمعاً حتى أنه لما أن تولى الخلافة أصدر أمره إلى علماء الآفاق بكتابة حديث رسول الله ﷺ، كما أمرهم بالجلوس للتحديث والرواية حتى لا تضيع الأحاديث بموت كبار العلماء من التابعين، وهو أول خليفة أمر بذلك. وكان عمر ثقة حجة حافظاً شهد له بذلك العلماء حتى لقد كان يقرن بالزهري في علمه. قال مجاهد: أتيناه لنعلمه فما برحنا حتى تعلمنا منه. وما زال هذا شأنه حتى وافته منيته سنة إحدى ومائة من الهجرة. انظر تاريخ الخلفاء ص ١٥٣، تهذيب الأسماء ٢ - ١٧ وتهذيب التهذيب ٧ - ٤٧٥.

المبحث الثامن

الرد على شبه وردت على رواية الحديث وكتابته في القرن الأول

ظهر لنا مما تقدم أن الحفظ والكتابة تعاونا على جمع الحديث وصيانته في القرن الأول حتى جاء عصر التدوين، ولكن بعض الزنادقة أبوا إلا أن يشككوا المؤمنين في رواية السنة وحَمَلَتها في عهودها المختلفة، بزُخرفٍ من القول، وباطلٍ من الأدلة،ونحن نورد مقالتهم ثم نُتبعها بما يَدْحَضُها، معتمدين على الله، فنقول:

كيف كانت تروى الأحاديث النبوية ... رد شُبُهٍ أثيرت حول الرواية بالمعنى:

يقول دعاة الإلحاد: أن الأحاديث قد رواها الرواة بالمعنى، لا بالألفاظ المسموعة منه ﷺ، وكان هذا شأن الرواة في كل طبقة، يسمعون الأحاديث بألفاظ ثم يروونها بألفاظ أخرى، وهكذا، حتى وصلت إلينا، وقد انطمست معالم ألفاظها ومعانيها، فكان للرواية بالمعنى ضرر كبير في الدين واللغة والأدب، ولهذا لم يثق العلماء على اختلاف مشاربهم بالأحاديث، فالمتكلمون ردوا منها ما لا يتفق وما ذهبوا إليه من أصول، والفقهاء أخذوا منها وتركوا، وعلماء العربية لما رأوا الأحاديث قد رويت بالمعنى، ولم يعلموا على اليقين لفظه ﷺ الذي نطق به، رفضوا أن يستشهدوا بها في إثبات اللغة أو قواعد النحو، في الوقت الذي يستشهدون فيه بكلام أجلاف العرب

الذين كانوا يبولون على أعقابهم.

قالوا: وقد كان الواجب يقضي أن تكتب الأحاديث بين يديه ﷺ كالقرآن، ويتلقاها الرواة طبقة بعد طبقة، مضبوطة الألفاظ، متواترة الإسناد، حتى يمكن الوثوق بها.

الجواب:

ولتفنيد هذه الشبهة ينبغي أن نتعرض للبحث في الموضوعات الآتية:

(١) لماذا لم تدون السنة بين يديه ﷺ كالقرآن؟

(٢) رواية السنة بالمعنى لا تجوز بعد تدوينها في الكتب.

(٣) الصحابة ومن بعدهم كانوا يحرصون على الرواية باللفظ النبوي. لا يعدلون عنه إلا عند الاضطرار.

(٤) اختلاف ألفاظ الأحاديث التي تتوارد على معنى واحد، لا يرجع إلى الرواية بالمعنى وحدها.

(٥) قبول التشكيك في الأحاديث يرفع الثقة عن جميع العلوم.

(٦) لماذا أخذ العلماء من الأحاديث وتركوا.

(٧) المحققون من أئمة العربية على جواز الاستشهاد بالأحاديث في اللغة والنحو.

وإليك هذه المباحث بإيجاز حتى تَنجابَ عنك تلك الظلمات:

١ - «لماذا لم تدون السنة بين يديه ﷺ كالقرآن».

اعْلَمْ أن كتابةَ القرآن بين يديه ﷺ كان بوحي من الله عز وجل، لأنه مُتعبَّدٌ بتلاوته، معجز بنظمه، ومن أجل ذلك لا تجوز روايته بالمعنى، بل لابد من المحافظة على لفظه المنزل، فلو ترك لحوافظ العرب تَعِيه، بدون أن تستعين على وعيه بالكتابة، لما أمن أن يزيدوا فيه حرفاً أو ينقصوه، أو يبدلوا كلمة بكلمة، أوجملة بأخرى، إلى غير ذلك من أنواع التغيير والتبديل، فيختل بذلك ركن من أركانه وهو النظم.

وكذلك ترك كتابة السنة بين يديه ﷺ كان بوحي من الله جل شأنه، لأن المقصود منها المعنى دون اللفظ، ولذلك لم يُتَعبَّدْ بتلاوتها، ولم يقع التحدي بنظمها، وتجوز روايتها بالمعنى.

هذا إلى أن في المحافظة على لفظ القرآن صيانة الشريعة، وفي الاكتفاء برواية السنة بالمعنى التيسير على الأمة، والتخفيف عنها، في تحملها وأدائها، وذلك لأن السنة لو كانت كالقرآن في وجوب أخذها وأدائها باللفظ المسموع منه ﷺ، لتحملت الأمة في روايتها من ضروب الضيق والحرج ما لا يحصى، ولو كان القرآن كالسنة في جواز روايته بالمعنى لما كانت النفوس تطمئن إلى الشريعة، ولكان في القرآن منفذ للزنادقة والملحدين، إذ يقولون لا ثقة لنا بأنه تنزيل من الله، ولكن الله عز وجل صان الشريعة، وخفف عن الأمة.

ولا يغيب عنك أن رواية السنة بالمعنى، يشترط فيها أن يكون الراوي خبيراً باللغة وأسرارها، وبالشريعة ومقاصدها، ذا ملكة قوية فيهما، وأن يكون الحديث الذي

يريد روايته بالمعنى ليس من جوامع الكلم، ولا مما يتعبد بلفظه، ولا مما تعيه ذاكرته، فإن كان الراوي غير عالم بأساليب العرب، أو بعلوم الشريعة ومقاصدها، أو كان الحديث من جوامع الكلم، أو مما يتعبد بلفظه كأحاديث الدعاء، أو كان محفوظاً للراوي، لم تجز الرواية بالمعنى في هذه الأحوال كلها،ومن ذلك كله يتبين لك أن الرواية بالمعنى لا يترتب عليها إخلال بالسُّنة أو عَبَثٌ بها.

فإن قال قائل بعد هذا البيان: «إن ترك كتابة السنة بين يديه ﷺ مما يرفع الثقة بها» قلنا له: معنى ذلك رمي النبي ﷺ ـ وحاشاه ـ بالتقصير في تبليغ الوحي الإلهي، أو معناه: أن السنة ليست من الدين، والقول بهذا أو ذاك، ضلال مبين، واتباع لغير سبيل المؤمنين.

٢- الرواية بالمعنى لا تجوز بعد تدوين الحديث.

الرواية بالمعنى لم تكن من الرواة بعد تدوين الحديث، وذلك لأن الأصل في الرواية أن تكون على اللفظ المسموع منه ﷺ فإذا نُسِيَ اللفظُ جازت الرواية بالمعنى على سبيل التخفيف والرخصة، وبتدوين الأحاديث زال هذا المعنى الذي أوجب التيسير والرخصة، فوجبَ أخذُ الحديث وروايته بلفظه، ولقد بدأ تدوين الحديث بشكل ظاهر منظم على رأس المائة الأولى، بأمرٍ من الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز، فأخذ العلماء في جميع الأمصار يدونون ما وعته حوافظهم القوية، أو صحفهم المصونة، وتتابعوا على تدوين السنة في مراحل مختلفة، وبطرق متنوعة، إلى أن انتهت تلك المراحل والطرق بظهور الأصول الخمسة «البخاري ومسلم والنسائي وأبو داود والترمذي» في القرن الثالث، الذي يُعَدُّ بحقٍّ العصرَ الذهبي لتدوين السنة، ولقد كانوا في تدوينهم للسنة

يقابلون ما يكتبون على الأصول، خشية الزيادة أو النقص بسبب الخطأ أو النسيان، حتى إذا اطمأنوا إلى ما كتبوا صانوا تلك الكتب أو الصحف عن أن تمتد إليها يد تُغيِّرُ أو تبدل، هذا مع بقائهم على ما كان عليه أسلافهم من حفظ الحديث في الصدور، واتقانه في الأداء، وتلقيه من أفواه المشايخ بالأسانيد المتصلة، فكان التدوين عاملاً جديداً من عوامل حفظ السنة وصيانتها، أضيف إلى ما كانوا عليه من حفظ السنة في الصدور، ووعيها في القلوب.

وما ذكرنا من أن الرواية بالمعنى لم تكن بعد تدوين الكتب، ولا تجوز بعدها، نص عليه علماء الحديث الأعلام، منهم الإمام أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن، المعروف بابن الصلاح، المتوفى سنة ٦٤٢ هـ إذ يقول في مقدمته بعد أن ذكر اختلاف العلماء في جواز الرواية بالمعنى: «ثم إن هذا الخلاف، لا نراه جارياً ولا أجراه الناس ـ فيما نعلم ـ فيما تضمنته بطون الكتب، فليس لأحد أن يغير لفظ شيء من كتاب مصنف، ويثبت بدله فيه لفظاً آخر بمعناه، فإن الرواية بالمعنى رَخَّصَ فيها من رخص، لما كان عليهم في ضبط الألفاظ والجمود عليها من الحرج والنصب، وذلك غير موجود فيما اشتملت عليه بطون الأوراق والكتب، ولأنه إن ملك تغيير اللفظ فليس يملك تغيير تصنيف غيره والله أعلم» أ هـ ومثله في «تقريب النواوي» وشرحه «تدريب الراوي».

وبذلك يسقط قول الملحدين: «أن الرواة تناقلوا الحديث بألفاظهم في جميع العصور».

٣- الصحابة والتابعون كانوا يحرصون في رواية الحديث على اللفظ النبوي.

الرواية بالمعنى كانت في المائة الأولى للهجرة، أي في عصر الصحابة والتابعين

قبل أن يشيع تدوين الحديث، ولم يكونوا على وفاق في الرواية بها، فبعضهم كان يُحجِمُ عن رواية الحديث إذا نسي لفظه ﷺ، تَورُّعاً خشيةَ أنْ لا يصيبَ المعنى، ويرى بأنه قد خرج من إثم كتمان العلم، بأداء غيره ممن هو أحفظ منه وأضبط، وبعضهم كان إذا نسي لفظ الحديث أو بعضه رواه على المعنى إذا كان ضابطاً له، خروجاً من إثم كتمان العلم، وعملاً بحديث : «إذا لم تُحِلُّوا حراماً ولم تُحرموا حلالاً وأصبتم المعنى فلا بأس» قاله ﷺ لمن قال له من الصحابة: «يا رسول الله إني أسمع منك الحديث لا أستطيع أن أؤديه كما أسمع منك يزيد حرفاً أو ينقص حرفاً، قال الحسن: «لو لا هذا ما حدثنا»، ولأن تبليغ الأحاديث واجب، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها، فإذا نَدَّ اللفظُ عن الذهن وعلم المعنى وجب أداؤه بلفظ مماثل، روى البيهقي عن مكحول قال: دخلت أنا وأبو الأزهر على واثلة بن الأسقع، فقلنا له: يا أبا الأسقع، حَدِّثْنا بحديثٍ سمعته من رسول الله ﷺ ليس فيه وهم ولا مزيد ولا نسيان، فقال: هل قرأ أحد منكم من القرآن شيئاً، فقلنا نعم، وما نحن له بحافظين جداً، إنا لنزيد الواو والألف وننقص، قال: «فهذا القرآن مكتوب بين أظهركم، لا تألونه حفظاً، وأنتم تزعمون أنكم تزيدون وتنقصون، فكيف بأحاديث سمعناها من رسول الله ﷺ، عسى أن لا نكون سمعناها منه إلا مرة واحدة، حسبكم إذا حدثناكم الحديث على المعنى»، وأسند عن أبي أويس قال: سألنا الزهري عن التقديم والتأخير في الحديث، فقال: «إن هذا يجوز في القرآن [1]، فكيف به في

(١) أي في مقام الشرح والبيان، لا في مقام التلاوة والأداء. ويجوز أن يكون في مقام التلاوة والأداء ولكن في الجملة الوافرة من السورة كأن يقرأ سورة الكهف من منتصفها، ثم ينشط فيقرأ باقيها في أولها.

الحديث، إذا أصبت معنى الحديث، فلم تُحِلَّ به حراماً أو تحرم به حلالاً فلا بأس»، وأسند عن وكيع قال: «إن لم يكن المعنى واسعاً فقد هلك الناس»، وعلى جواز الرواية بالمعنى عند نسيان اللفظ النبوي جمهورُ السلف، وعليه كان العمل كما بينا، ومن هنا أخذ الماوردي اشتراط نسيانه لفظه ﷺ، في جواز الرواية بالمعنى، إذ يقول: «إن نسي اللفظ جاز، لأنه تحمل اللفظ والمعنى، وعَزَّ عن أداء أحدهما، فيلزمه أداء الآخر، لا سيما أنَّ تركه قد يكون كتماً للأحكام، فإنْ لم يَنْسَهُ لم يجز أن يورده بغيره، لأن في كلامه ﷺ من الفصاحة ما ليس في غيره» أ هـ ونِعْمَ ما قال، رحمه الله، قال السيوطي: ولا شك في اشتراط أن لا يكون مما تعبد بلفظه، قال: وعندي أنه يشترط أن لا يكون من جوامع الكلم أ هـ.

وكان صحابة رسول الله ﷺ إذا اضطروا إلى الرواية بالمعنى، أو شَكُّوا في اللفظ النبوي أوفي بعضه، أوردا عقب الحديث لفظاً يُفيدُ التَّصَوُّنَ والاحتياط، وهم أعلم الناس بمعاني الكلام، لعلمهم بما في الرواية بالمعنى من الخطر، روى ابن ماجه وأحمد والحاكم عن ابن مسعود أنه قال يوماً: قال رسول الله ﷺ، فاغرورقت عيناه، وانتفخت أوداجه، ثم قال: «أو مثله أو نحوه أو شبيه به»، وفي مسند الدارمي والكفاية للخطيب عن أبي الدرداء أنه كان إذا حدث عن رسول الله ﷺ قال: «أو نحوه أو شبهه»، وروى ابن ماجه وأحمد عن أنس بن مالك أنه كان إذا حدث عن رسول الله ﷺ ففرغ قال: «أو كما قال رسول الله ﷺ».

هذا ما كان من صحابة رسول الله ﷺ والتابعين عند رواية الحديث النبوي، لا يترخصون في الرواية بالمعنى إلا عند نسيان اللفظ المسموع منه ﷺ، وفي غير جوامع

الكلم، وما تُعُبِّدَ بلفظهِ[1] ثم بعد هذا كله يتبعون الحديث بقول يفيد احتياطهم في روايته، وينبهون أثناء سياق الحديث على موضع السهو أو التردد بها لا تجده لأمة من الأمم في أي عصر من العصور، وإن شئت فاقرأ طرفاً من كتب السنة المصونة كالصحيحين أو السنن لتلمس ما كان عليه القوم من حِفْظٍ وضبط، ومن أمانة تامة، وبيان لحقيقة ما يروون:

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع

وأكثر ما كانوا يفعلون، الرواية على اللفظ النبوي المسموع منه ﷺ، يحرصون على ذلك أشد الحرص وأبلغه، لأن رسول الله ﷺ أفصح العرب، ولأن أحاديثه دين، ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ [النجم]، وساعدهم على ذلك أمور:

أولاً: حوافظهم الواعية، وأذهانهم الصافية، وقلوبهم العاقلة، وسجل لهم التاريخُ الصحيح من ذلك العجبَ العُجاب، فقد كانوا يحفظون القصائد والخطب الطويلة، بسماعها مرة أو مرتين أو ثلاثاً، ثم تبقى في أذهانهم ما بقوا، لأنهم قوم أميون، دواوينهم صدورهم، وكتبهم حوافظهم، نمت فيهم ملكة الحفظ بالممارسة، ومن الخطأ أن يقاسوا على الأمم الأخرى، أويقاسوا علينا في هذا العصر.

ثانياً: تدوين كثير منهم لأحاديثه ﷺ كتابة، خشية أن يضيع منها شيء عن أذهانهم، بسبب السهو أو الخطأ أو تقدم السن، وكانت الكتابة في التابعين أكثر منها بين الصحابة، فكان هذا التدوين الشخصي إلى جانب الحفظ في الصدور من أكبر العوامل على صون الحديث كما سمع منه ﷺ، ومن كره تدوين الحديث من الصحابة أو التابعين

(١) كألفاظ الدعاء أو الأذان والإقامة أو التشهد في الصلاة.

كان خشية الاعتماد على الكتابة وترك الحفظ، أو لأنهم تلقوها حفظاً فأحبوا أن تؤخذ عنهم كذلك، أو لأنهم خافوا أن تضعف ملكة الحفظ فيهم بسبب التدوين، إلى غير ذلك مما تقدم لنا تفصيله.

ثالثاً: تلك المجالس التي كانوا يعقدونها لتحمل الحديث وروايته، وتلك الرحلات إلى الأمصار المختلفة لذلك، فكانت هذه وتلك مما أعانت على بقاء حفظ السنة في أذهانهم، وضبطها في صدورهم، وتثبيتهم فيما عسى أن يكونوا قد شكوا أو ترددوا فيه، وتلقيهم ما فاتهم من حديثه ﷺ. وقد رغبهم ﷺ في التبليغ عنه، فصدعوا بما أمروا، وتفانوا في القرآن والحديث أخذاً وتحملاً، فرضي الله عنهم، وأثابهم أعظم المثوبة.

من أجل ذلك كله نستطيع أن نقول ونحن مطمئنون: أن الرواية بالمعنى كانت قبل فساد اللسان العربي، ومن أئمةٍ كبار في اللغة والشرع معاً، وكانوا يرونها رخصة عند الاضطرار، وكان نسيانهم قليلاً بل نادراً، فإنْ كانَ ففي بعضِ حروفِ العطف، أو المفردات، أو بعض الجمل.

٤ - اختلاف ألفاظ الأحاديث لا يرجع إلى الرواية بالمعنى وحدها.

من الخطأ البيِّنِ أن يُعزى اختلاف ألفاظ الأحاديث التي تتوارد على معنى واحد، إلى الرواية بالمعنى وحدها، بل كان لمجالسه ﷺ المتعددة بتعدد الأزمنة والأمكنة، والحوادث والأحوال، والسامعين والمستفتين، والمتخاصمين والمتقاضين، والوافدين والمبعوثين، أثر في ذلك كبير، فكانت ألفاظه ﷺ تختلف في كل ذلك، إيجازاً وإطناباً، ووضوحاً وخفاء، وتقديماً وتأخيراً، وزيادة ونقصاناً، بحسب ما تقتضيه الحال، ويدعو

إليه المقام، فقد يُسأَلُ عن أفضل الأعمال مثلاً فيجيب كل سائل بجواب غير جواب صاحبه، أو عن أفضل الجهاد فيذكر لكل مُستفتٍ نوعاً من أعمال البر غير ما يذكره للآخر، أو عن أحب أنواع الصدقة فيذكر لهذا غير ما يذكره لذاك، أو يسأل عن معنى البر والإثم فتتعدد أجوبته بتعدد السائلين، وهكذا، فيظن مَنْ لا علم عنده أن هذا من باب التعارض، أو من عدم ضبط الرواة، وواقع الأمر أن رسول الله ﷺ كان طبيب النفوس، فيجيب كل إنسان عن مسألته بما يناسبه، وبما يكون أنفع له أو للناس في جميع الظروف أو في الظرف الذي كان فيه الاستفتاء.

وانظر إلى اختلاف ألفاظ الأذان والإقامة والتشهد، والأذكار في الصلوات وبعدها، والأدعية فيها وفي غيرها، والرواة في الجميع عُدولٌ ضابطون، فيظن من لا علم عنده أن هذا من باب التناقض، أو أنه من عدم ضبط الرواة، أو من الرواية بالمعنى، والواقع أن كل ذلك كان بتعليم منه ﷺ، إشارة إلى جواز الجميع، وأن في الأمر سعة وتيسيراً على الأمة ـ ثم انظر تعاليمه ﷺ للوفود، ووصاياه القيمة لما يبعثهم إلى الأقطار المختلفة، معلمين ومرشدين، ومبشرين ومنذرين، وإلى كتبه للملوك والرؤساء والحكام، تجدها حافلة ببالغ العظات، ونافع الوصايا، مع تفنن في القول، ورعاية للمناسبات،وخطاب للناس على مقدار عقولهم.

ولقد كان لرسول الله ﷺ خُطَبٌ في الجمع والأعياد، والغزوات والحروب، ومهمات المسائل وجسام الأمور، يحذر فيها وينذر، ويُبَصِّرُ فيها ويُرشد، ويذكر قواعد الإسلام، ومعالم الأحكام، وأحوال الجنة والنار، وأشراط الساعة، وعذاب القبر، وألفاظه في ذلك تختلف باختلاف المناسبات، وتطول وتقصر تبعاً لما تقتضيه الأحوال.

ولقد كانت مجالسه المباركة وكثرتها سفراً وحضراً، حافلة ببيان الأحكام، وتصحيح الأخطاء، والوصايا بتقوى الله عز وجل، والحث على مكارم الأخلاق، والتحذير من مساوئها، وربما قص عليهم فيها من أنباء الأمم الخالية، ما فيه عبرة وذكرى، يصرف القول في جميع ذلك بما يتلاءم وحال السامعين، من البسط والإيجاز، والوضوح والخفاء [1].

فهل ترى في أحاديثه ﷺ في جميع ما ذكرنا، وتنويعها حسب ما يليق بكل حال، تناقضاً واختلافاً، أو أن الرواة لم يضبطوا ما سمعوا فترخصوا في الرواية بالمعنى فكان من ذلك التناقض والاختلاف؟ اللهم لا هذا ولا ذاك، ولكنه الحكمة في التعليم، والرعاية للمناسبات، والتلطف في تبليغ الوحي الإلهي، وإعطاء ما يناسب الأفراد والجماعات، من العظات وبيان الأحكام.

وما لنا نذهب بعيداً،وهذا كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فيه القصة الواحدة لنبي من الأنبياء، تذكر في جملة سور منه على وجوه شتى، فتارة تذكر كلها كاملة، موجزة أو مبسوطة، وتارة يذكر طرف منها في سورة وطرف آخر في سورة أخرى. موجزاً ذلك الطرف أو مبسوطاً، كل ذلك مع اختلاف الألفاظ. وتنوعت العبارات، كماتراه في قصة آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام. أترى في تصريف القول في كل قصة من قصص الأنبياء مثلاً تناقضاً واختلافاً، كما يراه من في قلوبهم مرض، أم أنه الحق من ربك، يصدق بعضه بعضاً،

---

(١) فإذا أضفت إلى هذا كله، أن رواة أحاديثه ﷺ في كل مجلس، قد يروون جميع ما سمعوا، وقد يقتصرون على بعضه. وما يقتصر عليه هذا غير ما يقتصر عليه ذاك تبعاً لمواطن الاستشهاد مع المحافظة على اللفظ المسموع، استبان لك أن شبهات الملحدين قد ذهبت هباء.

ويشرح المجمل فيه بالمفصل، ويضم طرف من القصة الواحدة في موضع إلى طرف منها في موضع آخر فتلتئم أطراف القصة، وإن ذلك كله كان لاختلاف المقام، ورعاية الحال، كما يعلمه الراسخون في العلم، قائلين: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ (٧)﴾ [آل عمران].

أما أنه لو لم يثبت القرآن بالتواتر حفظاً وكتابة، وكان ثبوته عن طريق الآحاد كالسنة، لكانت الشبهة هي الشبهة، ولكن الله عز وجل قد صانه عن الشبهات بالتواتر، ليضرب لنا فيه الأمثال على صدق السنة: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ (٧)﴾ [آل عمران].

٥- اعتبار التشكيك في الأحاديث يرفع الثقة بجميع العلوم.

ليس لدينا علم من العلوم سعد باتصال الأسانيد بالثقات الضابطين وتنوع تلك الأسانيد، ومعرفة أحوال الرواة، من جهة شيوخهم وتلاميذهم، وتعديلهم وتجريحهم، وحلهم وترحالهم، ومواليدهم ووفياتهم، مثل علم الحديث النبوي، ففيه من كتب الرجال والطبقات في جميع العصور والأمكنة، ما تستطيع به أن تطلع على تاريخ كل راو من رواة السنة وما قيل فيه، ولو حاولت أن تفعل ذلك أو بعضه مع رواة الأدب أو مع رواة التاريخ أو غيرهما من العلوم، لالتوى عليك البحث، وأدركك العجز، مهما أوتيت من سعة الذهن، ووفرة المراجع، وسعة الاطلاع.

وقد أتاح الله عز وجل لهذه السنة النبوية المباركة، أن يخدمها في كل عصر ومصر أئمة كرام بررة،وأعلام ثقات مهرة، لأنها شارحة للقرآن، ومفصلة لمقاصده، بمقتضى قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ (٤٤)﴾ [النحل] فكان حفظها حفظاً للقرآن والعناية بها أخذاً وتحملاً، سنداً ومتناً، عناية بالقرآن، الذي ضمن الله بقاءه على الدهر، بقوله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ (٩)﴾ [الحجر].

ولو أننا ذهبنا نستمع إلى من في قلوبهم مرض، من دعاة الإلحاد وخصوم الإسلام، وصرنا إلى ما صاروا إليه من الشبهات، المؤسسة على شفا جرف هار، لذهبت ثقتنا بجميع العلوم، ذلك لأن علماءها لم يبذلوا فيها، من الدرس والتمحيص، والدقة والتحري، عشر معشار ما بذله علماء الحديث، في حفظ السنة ورعايتها، وتمييز صحيحها من ضعيفها، ومعرفة أحوال رواتها على اختلاف طبقاتهم وأزمنتهم وأمكنتهم، كما بينا، فإذا انهار حصن السنة الحصين، بعد تلك العناية البالغة، التي يشهد بها التاريخ والواقع، لم يبق هناك علم نرجع إليه أو نثق به، وكفى بذلك حمقاً وجهلاً.

إنك لو فتشت عما يريده هؤلاء المارقون، لرأيتهم يريدون الإتيان على الإسلام من القواعد، لذلك ترى فريقاً منهم يحاول صد الناس عن اتباع السنة، عن طريق النيل من حماتها، وتسفيه حملتها، ورميهم بكل نقيصة، بغياً وحسداً، باسم البحث الحر، والدراسة التحليلية، والطريقة العلمية،ومن عجيب أمر هؤلاء أنهم يحملون علماء السنة وحماتها أوزار الوضاعين، من الجهلة والزنادقة والمغرضين، ويردون ما صح من الأحاديث بإجماع الأئمة، بأخبار ضعيفة،وآثار واهية، ينقلونها عن كتب الأدب والتاريخ وعن جهلة الشيعة والمعتزلة، وهي إذا وزنت بميزان النقد الصحيح انهارات أسانيدها ومتونها وذهبت هباء منثوراً، بل ويذهبون بتسعة أعشار السنة التي تلقاها العلماء بالقبول في جميع الأعصار والأمصار، بحديث من وضع الزنادقة لا وزن له عند علماء السنة، وهو «ما أتاكم عني فاعرضوه على كتاب الله... إلخ»، ويتظاهرون بإجلال القرآن واحترامه،وأنه الحجة التي ليس وراءها حجة، هذا حال فريق منهم إزاء السنة، وهناك فريق آخر يحاولون أن يتلاعبوا بالقرآن عن طريق التأويلات الباطلة، والأفهام الزائفة باسم التجديد، ونبذ القديم، ويلتقي هذا الفريق وذاك عند هدف واحد،هو

هدم الإسلام، وصد الناس عن اتباعه ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝٥٣﴾ [الذاريات]. ولكن الله قد حمى عرين الدين بهؤلاء العلماء، الثقات الأمناء، فردوا كيدهم في نحورهم، وذهبوا بأباطيلهم ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٣٢﴾ [التوبة].

٦- ترك العلماء لبعض الأحاديث وسببه.

لم يكن ذلك منهم استهانة بالسنة ومسايرة للأغراض والشهوات، معاذ الله أن يكون منهم هذا، وهم أئمة الهدى،ومصابيح الدجى، وحملة السنة وحماتها، وفي القرآن الكريم ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٦٣﴾ [النور]، ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ۝٢٦﴾ [ص]، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِۚ ۝٥٠﴾ [القصص] وفي الحديث «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به» وإنما كانوا يفعلون ذلك، لأن الحديث لم يبلغهم، أو بلغهم ولم يصح لديهم، أو صح ولكن عارضه ما هو أقوى من أدلة الشريعة أو رأوه منسوخاً، إلى غير ذلك من الاعتبارات الشرعية، التي بسطها ابن تيمية في رسالته (رفع الملام عن الأئمة الأعلام). حتى لا يختلط عليك الحق بالباطل، فنقول وبالله التوفيق:

أولاً: العقائد التي يتوقف عليها صحة الإسلام ثابتة بالأدلة القطعية من العقل والنقل، وذلك كالإيمان بوجود الله ووحدانيته، ووصفه بأوصاف الكمال والجلال، وتنزيهه عن سمات الحدوث والنقصان، وكالايمان بملائكة الله وكتبه ورسله والقدر خيره وشره، وكالإيمان بالبعث بعد الموت، والمجازاة على الأعمال بالنعيم في الجنة أو العذاب في النار يوم القيامة.

هذا النوع من العقائد لا يثبت إلا بصريح العقل ونصوص القرآن وما تواتر لفظاً أو معنى من أحاديث سيد المرسلين ﷺ فإن رأيت فيه حديثاً غير متواتر فلا ترده لأنه عاضد للدليل القطعي، أما العقائد التي لا يتوقف عليها أصل الإيمان ولا تحقق الإسلام فهذه يجوز إثباتها بأخبار الآحاد الصحيحة التي لا تعارض قرآناً ولا سنة متواترة ولا إجماعاً ولا عقلاً صريحاً وذلك كوصف الله تعالى بشيء من أوصاف الكمال تفصيلاً، وتسميته ببعض أسمائه الحسنى، وكالإخبار عن بعض المغيبات الكائنة أو المستقبلة، وكعذاب القبر ونعيمه وما يكون فيه، وكتفاصيل ما يكون يوم القيامة من الشفاعة ووزن الأعمال ورؤية الله عز وجل.

على أن الأحاديث في هذا النوع من العقائد كثيراً ما تتعدد طرقها فتكتسب الشهرة أو التواتر، وقد يحفُّ بها من القرائن أو يعاضدها من ظواهر القرآن الكريم وإجماع العلماء الذين يعتد بإجماعهم ما يجعلها في درجة الأدلة اليقينية، وجاحد هذا النوع من العقائد ضال مضل وفاسق مبتدع.

ثانياً: علمت مما تقدم أن ما لم يتواتر من الأحاديث «وهو خبر الواحد في اصطلاح المحدثين» يحتج به في العقائد التي لا يتوقف عليها أصل الإيمان، وذلك بناء على أن مثل هذه العقائد يكتفى فيها بالظن القوي، أو بناء على ما يراه كثير من المحققين من أن خبر الواحد يفيد العلم[1] لا سيما إن تعددت طرقه أو انضم إليه ظاهر القرآن

(١) روي عن مالك وأحمد وجماعة من أهل الحديث أن خبر الواحد الصحيح يفيد القطع، وحكاه ابن حزم عن داود وانتصر له، وأفاد الحافظ في شرح النخبة أنه يفيد العلم إذا احتفَّ بالقرائن، ومثل له بما أخرجه الشيخان في صحيحيهما، وبالمشهور إذا كانت له طرق متباينة سالمة من ضعف الرواة والعلل، وبالمسلسل بالأئمة الحفاظ حيث لا يكون غريباً.

الكريم أو إجماع علماء الدين.

ونفيد هنا أن الإمام البخاري في آخر صحيحه عقد كتاباً خاصاً بالتوحيد، أثبت فيه لله عز وجل كثيراً من أوصاف الكمال والجلال، بمقتضى الأحاديث الصحيحة، قال الحافظ في فتح الباري: «الذي يظهر من تصرف البخاري في كتاب التوحيد أنه يسوق الأحاديث التي وردت في الصفات المقدسة، فيدخل كل حديث منها في باب، ويؤيده بآية من القرآن، للإشارة إلى خروجها عن أخبار الآحاد، على طريق التنزل في ترك الاحتجاج بها في الاعتقاديات وأن من أنكرها خالف الكتاب والسنة جميعاً، وقد أخرج ابن أبي حاتم في كتاب الرد على الجهمية بسند صحيح عن سلام بن أبي مطيع وهو شيخ شيوخ البخاري، أنه ذكر المبتدعة فقال: ويلهم ماذا ينكرون من هذه الأحاديث، والله ما في الحديث شيء إلا وفي القرآن مثله، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝١﴾ [المجادلة]، ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ ۝٢٨﴾ [آل عمران]، ﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ ۝٦٧﴾ [الزمر]، مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ ۝٧٥﴾ [ص]، ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ۝١٦٤﴾ [النساء]، ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه] ونحو ذلك فلم يزل ـ أي سلام بن أبي مطيع ـ يذكر الآيات من العصر إلى غروب الشمس» أهـ (١٣ - ٣٠٤) من الأميرية.

ثالثاً: أسند الـلالكائي عن محمد بن الحسن الشيباني قال: اتفق الفقهاء كلهم من المشرق إلى المغرب على الإيمان بالقرآن وبالأحاديث التي جاء بها الثقات عن رسول الله ﷺ في صفة الرب من غير تشبيه ولا تفسير، فمن فسر شيئاً منها وقال بقول جهم فقد خرج عما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، وفارق الجماعة، لأنه وصف الرب بصفة «لا

شيء».

وأخرج ابن أبي حاتم في مناقب الشافعي عن يونس بن عبد الأعلى سمعت الشافعي يقول: «لله أسماء وصفات لا يسع أحداً ردها، ومن خالف بعد ثبوت الحجة عليه فقد كفر، وأما قبل قيام الحجة فإنه يعذر بالجهل، لأن علم ذلك لا يدرك بالعقل ولا الرؤية والفكر، فنثبت هذه الصفات وننفي عنه التشبيه كما نفى عن نفسه فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ⑪﴾ [الشورى].

وقال الترمذي في باب فضل الصدقة من «جامعه»: «قد ثبتت هذه الروايات فنؤمن بها ولا نتوهم، ولا يقال: كيف، كذا جاء عن مالك وابن عيينة وابن المبارك أنهم أَمَرُّوها بلا كيف، وهذا قول أهل العلم من أهل السنة والجماعة، وأما الجهمية فأنكروها وقالوا: هذا تشبيه، وقال اسحق بن راهويه: إنما يكون التشبيه لو قيل: يَدٌ كيدٍ، وسمعٌ كسمعٍ، وقال في تفسير المائدة: قال الأئمة: نؤمن بهذه الأحاديث من غير تفسير، منهم: الثوري ومالك وابن عيينة وابن المبارك».

وقال ابن عبد البر: «أهل السنة مجمعون على الإقرار بهذه الصفات الواردة في الكتاب والسنة ولم يكيفوا شيئاً منها، وأما الجهمية والمعتزلة والخوارج فقالوا: مَنْ أَقَرَّ بها فهو مُشَبِّه، فسماهم من أقر بها مُعَطِّلة» وقال إمام الحرمين في الرسالة النظامية: «اختلفت مسالك العلماء في هذه الظواهر: فرأى بعضهم تأويلها والتزم ذلك في آي الكتاب وما يصح من السنن، وذهب أئمة السلف، إلى الانكفاف عن التأويل،وإجراء الظواهر على مواردها، وتفويض معانيها إلى الله تعالى. والذي نرتضيه رأياً، وندين الله به عقيدة، اتباع سلف الأمة، للدليل القاطع على أن إجماع الأمة حجة، فلو كان تأويل

هذه الظواهر حتماً لأوشك أن يكون اهتمامهم به فوق اهتمامهم بفروع الشريعة، وإذا انصرم عصر الصحابة والتابعين على الاضراب عن التأويل كان ذلك هو الوجه المتبع» أ هـ راجع فتح الباري «١٣ - ٣٤٢، ٣٤٣ ط الأميرية».

ومن ذلك يتبين لك أن الأحاديث الصحيحة التي اشتملت على الصفات الإلهية المقدسة، لم يردها أئمة السلف، ولكنهم آمنوا بها كما جاءت، من غير أن يخوضوا في حقيقة معناها، مع تنزيه ربنا عز وجل عن مشابهة الخلق، ولكن الذي أنكرها إنما هم الجهمية وأضرابهم من المبتدعة، وهؤلاء ليس لهم وزن عند علماء القرون الثلاثة المشهود لهم بالخير، قال صاحب فتح الباري: «رد الروايات الصحيحة، والطعن في أئمة الحديث الضابطين، مع إمكان توجيه ما رووا، من الأمور التي أقدم عليها كثير من غير أهل الحديث، وهو يقتضي قصورَ فهمِ مَنْ فعل ذلك منهم، ومن ثَمَّ قال الكرماني: لا حاجة لتخطئة الرواة الثقات؛ بل حكمُ هذا حكمُ سائر المتشابهات إما التفويض وإما التأويل» أ هـ «١٣ - ٣٣٩ ط الأميرية» وقد علمت أن التفويض هو ما كان عليه السلف في عصور الخير، ولا نَدينُ اللهَ بغيره.

رابعاً: النصوص الشرعية على ظواهرها، ما لم يكن هناك موجب لصرفها عن هذا الظاهر من عقل صريح أو نقل صحيح أو إجماع ظاهر، ولا يجوز رد النصوص أو صرفها عن ظاهرها بالهوى أو بقياس الغائب على الشاهد أو بناء على الاستبعاد العادي، أو لأنها خارقة للنواميس العادية التي يسير عليها عالمنا الذي نعيش فيه، فإن لكل عالم نظاماً يخصه، ونواميس يجري عليها، وبناء على ما قدمنا فمن الخطأ رد أحاديث الدجال أو نزول عيسى عليه السلام أو طلوع الشمس من مغربها، أو رد أحاديث عذاب القبر أو الشفاعة أو رؤية الله عز وجل في الآخرة. كما أن من الخطأ رد

أحاديث شق الصدر الشريف وانشقاق القمر أو الإسراء والمعراج أو معجزاته ﷺ الحسية، والفاعل هو الله، والله عز وجل لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، ومبنى المعجزات خرق النواميس العادية، وإلا لما كانت معجزات، ولله عز وجل أن يكرم من شاء بما شاء، وهو العليم الحكيم، وأما قوله تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الأحزاب] فهذا في قتال أهل الحق مع أهل الباطل، يبتلي الله أولياءه بأعدائه، ثم تكون العاقبة للمتقين، وفي الأمم مع رُسُلِ ربها إذا كذبت وبغت يأخذها الله أخذ عزيز مقتدر، ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾﴾ [الطلاق]، ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ﴿٢٣﴾﴾ [الفتح].

هذا ما يرشد إليه السياق في جميع الآيات، ومن الحمق أن ترد تلك الأحاديث لمجرد الظاهر من غير تأمل السياق، وقد صرح القرآن نفسه بمعجزات حسية لبعض أنبياء الله، كموسى وعيسى وإبراهيم، عليهم السلام، فهل تُرَدُّ تلك المعجزات لمخالفتها للنواميس العادية، كما هو دأب الزنادقة والملحدين، أو تقبل النصوص كلها، ولا يرد بعضها ببعض، كما هو دأب الراسخين في العلم، ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴿٧﴾﴾ [آل عمران] لاشك أن مسلك أهل الحق هو المتعين، لأن ذلك جميعه.تنزيل من الله ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم].

الدور الرابع: السنة في القرنين الثاني والثالث
تدوين الحديث في هذا العصر
وأشهر الكتب المؤلفة فيه

مقدّمة:

ظهر لك مما أسلفنا ما قام به الصحابة والتابعون من جمع الحديث، والرحلة في طلبه، وذب الخرافات والأكاذيب عن ساحته، فانتشلوا الأحاديث من أيدي الخوارج والشيعة ومَنْ تظاهر بالإسلام من الفرس والروم واليهود وغيرهم، وظهر لك أيضاً أنهم أودعوا الأحاديث حوافظهم القوية وقرائحهم الصافية، فكانوا بذلك في غنى عن الكتابة، وما روي عن بعضهم أنهم كانوا يكتبون الأحاديث لم يكن منهم لضعفِ مَلَكَةِ الحفظ، بل كان لزيادة التأكد من ضبط الأحاديث وتحرير ألفاظها.

ثم لما انتشر الإسلام، واتسعت البلاد، وشاع الابتداع، وتفرقت الصحابة بالأمصار، ومات كثير منهم في الحروب وغيرها، وقَلَّ الضبطُ لضعف ملكة الحفظ، دعت الحاجة إلى تدوين الأحاديث وكتابتها، فكتب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز على رأس المائة الأولى إلى عامله وقاضيه على المدينة أبي بكر بن حزم: «انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه، فإني خفت دروس العلم، وذهاب العلماء»، وأوصاه أن يكتب له ما عند عمرة بنت عبد الرحمن الأنصارية والقاسم بن محمد بن أبي بكر،

وكذلك كتب إلى عماله في أمهات المدن الإسلامية بجمع الحديث، وممن كتب إليه بذلك محمد بن شهاب الزهري. ومن هذا الوقت أقبل العلماء على كتابة السنن وتدوينها، وشاع ذلك في الطبقة التي تلي طبقة الزهري فكتب ابن جريج بمكة (١٥٠)، وابن إسحاق (١٥١) ومالك (١٧٩) بالمدينة، والربيع ابن صحيح (١٦٠) وسعيد بن عروبة (١٥٦) وحماد بن سلمة (١٧٦) بالبصرة، وسفيان الثوري (١٦١) بالكوفة والأوزاعي (١٥٦) بالشام، وهشيم (١٨٨) بواسط، ومعمر (١٥٣) باليمن، وجرير بن عبد الحميد (١٨٨) وابن المبارك (١٨١) بخراسان.

كان هؤلاء جميعاً في عصر واحد، ولا يدري أيهم أسبق إلى جمع الحديث، ثم تلاهم كثير من أهل عصرهم في النسج على منوالهم، وكانت طريقتهم في جمع الحديث أنهم يضعون الأحاديث المتناسبة في باب واحد، ثم يضمون جملة من الأبواب بعضها إلى بعض، ويجعلونها في مصنف واحد، ويخلطون الأحاديث بأقوال الصحابة وفتاوى التابعين، على خلاف ما كان يصنعه أهل القرن الأول كالزهري، فإنهم كانوا يخصون كل مؤلف بباب من أبواب العلم يجمعون فيه الأحاديث المتناسبة مختلطة بأقوالِ الصحابة وفتاوى التابعين.

بدأ التدوين في أواخر عهد بني أمية على ما ذكرنا، ولكن لم يظهر شأنه تمام الظهور إلا في خلافة بني العباس، حول منتصف القرن الثاني، إذ نشطت حركة التدوين في العلوم المختلفة، وأخذت السنة حظها من ذلك [1] في هذا الدور على النحو الذي سبق، ولكن أين هذه المؤلفات الحافلة، التي جمعها الزهري ومن تلاه من

---

(١) مقدمة فتح الباري ص ٤ ومفتاح السنة وكشف الظنون جـ ٢ ص ٢٥٥ وتدريب الراوي للسيوطي ص ٢٤ وتاريخ الخلفاء له أيضاً ص ١٧٣.

المحدثين؟ إنه لم يصلنا منها إلا القليل، كموطأ الإمام مالك ومسند الإمام الشافعي والآثار للإمام محمد بن الحسن الشيباني أحد رواة الموطأ المتوفى سنة ١٨٩. ولعل سُنَّة التطور في التأليف هي التي قضت على هذه المؤلفات، والتاريخ يحدثنا أن التأليف في الفنون المختلفة، الحديث وغيره، أخذ في التحسن طبقة بعد طبقة، وعصراً بعد عصر، حتى وصل إلى الذروة في الجودة والاتقان، ولا ضير في ذلك ما دامت مادة الأحاديث التي رويت في كتب الزهري وغيره موجودة في المصنفات التي تتجدد في كل عصر، آخذة لوناً من الترتيب والتهذيب، يتناسب وذوق العصر الذي وضعت فيه، ولنتكلم عن أشهر الكتب المؤلفة في هذا الدور فنقول:

موطأ الإمام مالك:

الموطأ كتاب ألفه الإمام مالك مشتملاً على حديث رسول الله ﷺ وأقوال الصحابة وفتاوى التابعين. طلب أبو جعفر المنصور الخليفة العباسي إلى الإمام مالك أن يجمع ما ثبت لديه، ويدونه في كتاب، ويوطئه للناس، فألف كتابه هذا وسماه الموطأ. وقيل: إن سبب تسميته بذلك أنه لما ألفه عرضه على شيوخه فواطؤوه عليه فسمي الموطأ. ذكر السيوطي في مقدمته لشرح الموطأ أن مالكاً قال: (عرضت كتابي هذا على سبعين فقيهاً من فقهاء المدينة فكلهم واطأني عليه فسميته الموطأ).

تحرَّى مالك في موطئه القوي من حديث أهل الحجاز، حتى قالوا: إنه مكث في تأليفه أربعين سنة كاملة ينقحه ويهذبه. روى السيوطي في مقدمته لشرح الموطأ عن الأوزاعي أنه قال: عرضنا على مالك الموطأ في أربعين يوماً، فقال: «كتاب ألفته في أربعين سنة أخذتموه في أربعين يوماً؟ ما أقلَّ ما تفقهون فيه».

ومن عادة مالك في موطئه أن يذكر في مقدمة الموضوع ما جاء فيه من الحديث عن النبي ﷺ، ثم ما ورد فيه من الآثار عن الصحابة والتابعين، وندر أن يكونوا من غير أهل المدينة، لأن مالكاً لم يرحل عنها، وأحياناً يذكر ما عليه العمل أو الأمر المجتمع عليه في المدينة، وأحياناً يُتْبعُ الحديثَ بتفسير كلمةٍ لغوية أو بيان المراد من بعض الجمل.

درجة أحاديث الموطأ:

المتتبع لسيرة مالك في الحديث يجد أنه كان يتحرَّى في المتون وينتقي في الأسانيد، شهد له بذلك العلماء قديماً وحديثاً. ولما كان الموطأ هو خلاصة لجهود هذا المحدث الكبير، والإمام القدير، في أربعين عاماً، جاء كتاباً عظيماً، متقناً في بابه، غاية في المتانة، وقد بين العلماء سلفاً وخلفاً أن أحاديث الموطأ كلها صحيحة، وأن أسانيده وردت جميعها متصلة، أما ما قاله الحافظ ابن حجر العسقلاني: «أن كتاب مالك صحيح عنده وعند مَنْ يُقلِّده على ما اقتضاه نَظرهُ من الاحتجاج بالمُرسَلِ والمنقطع وغيرهما» فهو يعبر عن رأيه الخاص، ولكن يرى غيره من العلماء أنه ليس في الموطأ حديث مرسل ولا منقطع إلا قد اتصل سنده من طرق أخرى، وعليه فأحاديثه صحيحة من هذا الوجه، وقد تناول الناس أحاديث الموطأ بالتخريج حتى في زمن مؤلفه ووصلوا ما فيه من مرسلات ومنقطعات، ومن هؤلاء من شارك مالكاً في شيوخه كالسفيانين وابن أبي ذئب وغيرهم [1]. وهذا هو الحافظ ابن عبد البر أحد علماء القرن الخامس يصنف كتاباً حافلاً في وصل ما في الموطأ من المرسل والمنقطع والمعضل، قال: وجميع ما فيه من قوله «بلغني» ومن قوله عن «الثقة» عنده مما لم يسنده أحد وستون حديثاً كلها مسندة من

(١) انظر حجة الله البالغة جـ ١ ص ١٣٣.

غير طريق مالك إلا أربعة أحاديث لا تعرف، أحدها وهو في باب العمل في السهو: «إني لا أنسى ولكن أنسى لأسن» والثاني: «وهو في باب ما جاء في ليلة القدر من كتاب الاعتكاف أن رسول الله ﷺ أُريَ أعمارَ الناس قبله أو ما شاء الله من ذلك فكأنه تقاصرَ أعمارَ أمته ألا يبلغوا من العمل مثل الذي بلغ غيرهم في طول العمر، فأعطاه الله ليلة القدر خير من ألف شهر» والثالث: (وهو في كتاب الجامع) قول معاذ: «آخر ما أوصاني به رسول الله ﷺ وقد وضعت رجلي في الغرز أن قال: «حَسِّنْ خلقك للناس» والرابع: وهو في باب الاستمطار بالنجوم في أواخر كتاب الصلاة: «إذا نشأت بَحْرية ثم تشاءمت فتلك عين غديقة» أ هـ.

وهذه الأحاديث الأربعة ثبت ما يشهد بوصلها أيضاً.

قال ابن عبد البر في الحديث الأول أن معناه صحيح في الأصول وقد قال سفيان: إذا قال مالك بلغني فهو إسناد صحيح، وأما الحديث الثاني فقال السيوطي في كتابه «تنوير الحوالك»: له شواهد من حيث المعنى مرسلة ثم سردها، وأما الثالث فقد ورد معناه عند الترمذي، وأما الحديث الرابع فيشهد له ما ذكره الشافعي في «الأم» بسنده من غير طريق مالك أن النبي ﷺ قال: (إذا نشأت بحرية ثم استحالت شامية فهو أمطرها).

هذا وقد تناول العلماء تلك الأحاديث الأربعة بالبحث والتمحيص، وحكموا بوصلها، فأفردها الحافظ ابن الصلاح في تأليف وحكم بوصلها، وكذلك: الحافظ ابن مرزوق المعروف بالخطيب أفرد جزءاً في أسانيدها، وكذلك ابن أبي الدنيا أسند اثنين منها في «إقليد التقليد».

ومما يدل على أن هذه الأحاديث الأربعة متصلة كغيرها من أحاديث الموطأ قول سفيان بن عيينة: «كان مالك لا يبلغ من الحديث إلا صحيحاً ولا يحدث إلا عن ثقات الناس» [1]. وبناء على شهادة العلماء من السلف والخلف لهذا الكتاب الصحة والاتصال في جميع أحاديثه لا يسعنا إلا أن نتبعهم في ذلك ولا ينبغي أن يُظَنَّ غير هذا بمثل الإمام الكبير والمحدث النقادة الجليل إمام دار الهجرة وعالم أهل الحجاز.

عدد أحاديث الموطأ:

اختلف العلماء في عدد أحاديثه فابن الهباب يقول: أن مالكاً روى مائة ألف حديث جمع منها في الموطأ عشرة آلاف حديث، ثم لم يزل يعرضها على الكتاب والسنة ويختبرها بالآثار حتى رجعت إلى خمسمائة، وأبو بكر الأبهري يقول: جملة ما في الموطأ من الآثار عن النبي ﷺ وعن الصحابة والتابعين ألف وسبعمائة وعشرون حديثاً. المسند منها ستمائة حديث، والمرسل مائتان واثنان وعشرون حديثاً، والموقوف ستمائة وثلاثة عشر، ومن قول التابعين مائتان وخمسة وثمانون، وابن حزم يقول: أحصيت ما في الموطأ لمالك وما في حديث سفيان بن عيينة فوجدت في كل منهما من المسند خمسمائة حديث ونيفاً، وثلثمائة مرسلاً ونيفاً، وفيه نيف وسبعون حديثاً قد ترك مالك نفسه العمل بها، وفيها أحاديث ضعيفة وَهَّاها جمهور العلماء.أهـ.

وهذا الخلاف بينهم إنما هو راجع لاختلافٍ آخر في روايات الموطأ فالعَادُّون لحديثه إنما قال كل منهم على حسب الرواية التي وقعت له، فقد نقل السيوطي في «تدريبه» عن الحافظ صلاح الدين العلائي أنه قال: «روى الموطأ عن مالك جماعات

(١) انظر إضاءة الحالك ص ٦٣ وما بعدها.

كثيرة وبين رواياتهم اختلاف من تقديم وتأخير وزيادة ونقص ومن أكبرها زيادات رواية ابن مصعب قال ابن حزم: في موطأ ابن مصعب هذا زيادة على سائر الموطآت نحو مائة حديث» أ هـ.

كذلك في رواية محمد بن الحسن مائة وخمسة وسبعون حديثاً زادها من غير طريق مالك منها ثلاثة عشر عن أبي حنيفة وأربعة عن أبي يوسف والباقي عن غيرهما [1]. ومن ذلك اختلفت أقوال الناس في عَدِّ أحاديث الموطأ وكل حكم بما علم.

روايات الموطأ:

نُسَخ الموطأ كثيرة والذي اشتهر منها يبلغ نحو الثلاثين نسخة وكثيراً ما يقع بينها الاختلاف بالتقديم والتأخير والزيادة والنقصان حسب تَزَيُّدِ الرُّواةِ فيها، وقد ذكر السيوطي أن المشتهر عن الرواة أربع عشرة نسخة، ثم سردها، منها:

١- نسخة يحيى بن يحيى الليثي الأندلسي،سمع الموطأ أولاً عن عبد الرحمن المعروف بشبطون، ثم رحل إلى مالك مرتين، وسمع منه الموطأ بلا واسطة إلا ثلاثة أبواب في آخر كتاب الاعتكاف.

٢- نسخة الإمام محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة، وهو من أَجَلِّ أصحاب مالك في الحديث، كما أنه من أعظم أصحاب أبي حنيفة في الفقه، ونسخته تزيد كثيراً على نسخة يحيى الليثي، لكنه شحنها بآثار من غير طريق مالك يحتج بها لفقه أبي حنيفة، وهي مطبوعة في الهند وإيران ولها هناك وفي الحرمين شهرة عظيمة،وقال في «كشف الظنون»: قال أبو القاسم محمد بن حسين الشافعي: الموطآت المعروفة عن

(١) انظر تدريب السيوطي ص ٣٢ وما بعدها ومفتاح السنة للخولي ص ٢٤.

مالك أحد عشر موطأ معناها متقارب والمستعمل منها أربعة: موطأ يحيى بن يحيى، وموطأ ابن بكير، وأبي مصعب الزهري، وابن وهب، ثم ضعف الاستعمال إلا في موطأ يحيى ثم موطأ ابن بكير [1].

شروح الموطأ:

شرح الموطأ خلق كثير منهم:

(١) الحافظ أبو عمر بن عبد البر النمري القرطبي المتوفى سنة ٤٦٣ هـ،وله عليه شرحان أولهما: «التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد» رتبه على أسماء شيوخ مالك على حروف المعجم، وهو كتاب لم يتقدمه أحد إلى مثله. قال ابن حزم: «لا أعلم في الكلام على فقه الحديث مثله، فكيف أحسن منه؟».

وقال ابن عبد البر في وصف هذا الكتاب:

سمير فؤادي من ثلاثين حجة ... وصاقل ذهني والمفرج عن همي
بسطت لهم فيه كلام نبيهم ... لما في معانيه من الفقه والعلم
وفيه من الآداب ما يهتدى به ... إلى البر والتقوى ونهي عن الظلم

والثاني «كتاب الاستذكار في شرح مذاهب علماء الأمصار» شرح فيه الموطأ على وجهه، وكان أبو عمر رضي الله عنه موفقاً في التأليف معاناً عليه.

(٢) ومنهم جلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١ وسمى شرحه (كشف المغطى في شرح الموطأ) واختصره في شرحه (تنوير الحوالك) وطبع هذا الأخير مع الشرح بمصر في ثلاثة أجزاء صغيرة.

---

(١) انظر إضاءة الحالك ص ٤٠ - ٥١ وكشف الظنون جـ ٢ ص ٣٧٠.

(٣) ومحمد بن عبد الباقي الزرقاني المصري المالكي المتوفى سنة ١٠١٤ هـ شرحه شرحاً وسطاً في ثلاثة مجلدات.

(٤) وعبد الحي بن محمد اللكنوي الهندي المولود سنة ١٢٦٤ هـ في كتابه (التعليق الممجد على موطأ الإمام محمد) وقد طبع بالهند.

(٥) كما شرح الموطأ قطب الدين أحمد بن عبد الرحيم المحدث الحنفي الدهلوي المتوفى سنة ١١٧٦، شرحه في شرحين أحدهما باللسان الفارسي وسماه (المصفى) جرد فيه الأحاديث والآثار وحذف أقوال مالك وبعض بلاغاته وتكلم فيه كلام المجتهدين وثانيهما بالعربية وسماه (المسوى) اكتفى فيه بذكر اختلافات المذاهب وعلى شيء من شرح الغريب وغيره مما لابد منه [١].

مختصرات الموطأ:

اختصره كثير من العلماء منهم: الإمام أبو سليمان الخطابي المتوفى سنة (٢٨٨) وأبو الوليد الباجي المتوفى سنة (٤٧٤). وابن رشيق القيرواني المتوفى سنة (٤٥٦) وابن عبد البر وسمى كتابه «التقصي في مسند الموطأ ومرسله» وأبو القاسم عبد الرحمن الغافقي الجوهري المتوفى سنة (٣٨٥ هـ) اشتمل مختصره على ستمائة وستة وستين حديثاً مسنداً [٢].

---

(١) انظر كشف الظنون جـ ٢ ص ٣٧٠ ومفتاح السنة ص ٢٧ والانتقاء لابن البر ص ٥-٧ وإضاءة الحالك ص ٨-٩.

(٢) كشف الظنون جـ ٢ ص ٣٧٠ وإضاءة الحالك، والرسالة المستطرفة ص ١١.

عناية الناس بالموطأ:

منذ ألف مالك الموطأ والعلماء يضربون أكباد الإبل إلى المدينة يسمعونه منه حتى لقد رواه عن مالك بغير واسطة أكثر من ألف رجل، فكان ذلك مصداقاً لقول النبي ﷺ فيما رواه الترمذي (يوشك أن يضرب الناسُ أكبادَ الإبل في طلب العلم فما يجدون أعلم من عالم المدينة) قال عبد الرزاق: «هو مالك بن أنس».

عني الناس بالموطأ على اختلاف مشاربهم فكان منهم المبرزون من الفقهاء كالشافعي ومحمد بن الحسن وابن وهب وابن القاسم ومنهم نَحاريرُ المحدِّثين كيحيى بن سعيد القطان، وعبد الرحمن بن مهدي، وعبد الرزاق بن همام، ومنهم: الملوك والأمراء كالرشيد وابنيه الأمين والمأمون، وبذلك اشتهر الموطأ في عصر مؤلفه، فانكب الناس جميعاً عليه من جميع ديار الإسلام القاصي منهم والداني، ثم لم يأت زمان إلا ازداد الموطأ فيه شهرة على شهرة واشتدت عناية الناس به، ولا عجب فعليه بنى فقهاء الأمصار مذاهبهم حتى أهل العراق في بعض أمورهم، ولم يزل العلماء يخرجون أحاديثه، ويذكرون متابعاته وشواهده، ويشرحون غريبه، ويضبطون مُشْكِلَهُ، ويبحثون عن فقهه، ويفتشون عن رجاله، كما لم يزل الخلفاء يعرفون له قدره. فهذا أبو نعيم يروي في «الحلية» عن مالك بن أنس أنه قال: شاورني هارون الرشيد أن يعلق الموطأ في الكعبة ويحمل الناس على ما فيه، فقلت: لا تفعل فإن أصحاب رسول الله ﷺ اختلفوا في الفروع وتفرقوا في البلدان وكُلٌّ مصيب. فقال: وفقك الله يا أبا عبد الله، وقال القاضي الفاضل في بعض رسائله: ما أعلم لمالك رحلة في طلب العلم إلا للرشيد فإنه رحل لولديه الأمين والمأمون لسماع الموطأ على مالك. وكان أصل الموطأ بسماع الرشيد بخزانة المصريين ثم رحل لسماعه صلاح الدين الأيوبي إلى الإسكندرية فسمعه على ابن

طاهر بن عوف [1].

مناهضة العلماء للوضاعين:

هيأ الله تعالى للدفاع عن الأحاديث في هذا العصر طائفة من فطاحل النقاد وكبار الحفاظ انتدبوا أنفسهم لتخليص الحق من الباطل وتقربوا إلى الله بالكشف عن أحوال هؤلاء الكذابين على رسوله ﷺ المتزيدين في حديثه. وأنزلوا الرواة منازلهم وبينوا للناس درجاتهم ولقبوهم بما يستحقونه من المحاسن أو المثالب لا تأخذهم بأحد رحمة في دين الله فتراهم يقولون: فلان ثقة. فلان حجة. فلان كذاب. فلان لَيِّنُ الحديث. فلان لا بأس به. فلان ضعيف. إلى غير ذلك من ألقاب الرِّفْعةِ أو سمات الضعة والسقوط.

نشط علماء الحديث في هذا العصر ـ الذي يعرف عند المؤرخين بعصر التدوين ـ نشاطاً عظيماً في تدوين الحديث حتى لم يبق أحد منهم إلا صنف الكتب الحديثية، ورحل في سبيل ذلك المراحل العديدة وقطع الأسفار البعيدة إلى الأمصار الإسلامية المختلفة. فتجمع لديهم ثروة عظيمة من الأحاديث وتعددت أمامهم طرقها وأسانيدها، وبسبب ذلك انكشف لهم ما كان خافياً من اتصال بعض الأسانيد أو انقطاعها وبإمعانهم النظر في متون الأحاديث وفحصهم الدقيق عن قيمتها ظهر لهم الدخيل من غير الدخيل منها فكانت نهضة مباركة في جمع الحديث وثورة عنيفة في وجوه الوضاعين، غير أنهم لم يصلوا إلى هذه المرحلة الحاسمة والنصر المبين على أعداء الإسلام الألداء إلا بشق الأنفس، فهذا أبو داود السجستاني في رسالته إلى أهل مكة

---

(١) انظر حجة الله البالغة جـ ١ ص ١٢٢ ـ كشف الظنون جـ ٢ ص ٣٧١ ـ مفتاح السنة ص ٢٦ - تاريخ الخلفاء ص ١٩٥.

يقول ما خلاصته: كان سفيان ووكيع وأمثالهما يجتهدون غاية الاجتهاد فلا يتمكنون من الحديث المرفوع المتصل إلا من دَوَّنَ ألفَ حديث [1].

فإذا كان الحديث الواحد المستوفي الشرائط لا يمكن الحصول عليه إلا من بين ألف حديث سواه من ضعيف وموضوع. ظهر لنا ما كان يكابده هؤلاء الأئمة من جهد جهيد، حتى أبلوا ذلك البلاء المبين، وفي الحق أن علماء الحديث أبانوا عن علم غزير في الحديث ورجاله ومتونه وأسانيده كما أظهروا حيطة شديدة في الأخذ والتحمل عن الشيوخ. فأنت تراهم لم يكتفوا في تصحيح الحديث بدين الراوي وأمانته وكثرة حفظه حتى يكون مع ذلك ضابطاً عارفاً بما يتحمله من الحديث غير متساهل فيه.

فهذا مالك بن أنس يقول: (لا يؤخذ العلم عن أربعة ويؤخذ ممن سوى ذلك: لا يؤخذ عن سفيه، ولا يؤخذ من صاحب هوى يدعو الناس إلى هواه، ولا من كذاب يكذب في أحاديث الناس، وإن كان لا يُتَّهَمُ على أحاديث رسول الله ﷺ، ولا من شيخٍ له فضل وصلاح وعبادة إذا كان لا يعرف ما يحدث به) [2].

وسئل مالك: أيؤخذ العلم ممن ليس له طلب ولا مجالسة؟ فقال: لا، فقيل: أيؤخذ ممن هو صحيح ثقة غير أنه لا يحفظ ولا يفهم ما يحدث به؟ فقال: لا يُكتب العلمُ إلا عمن يحفظُ ويكون قد طلب وجالس الناس وعرف وعمل، ويكون معه ورع، ويقول مالك أيضاً: لقد أدركت سبعين ممن يقول: قال رسول الله ﷺ عند هذه الأساطين فما أخذت عنهم شيئاً وإن أحدهم لو ائتمن على بيت مال لكان به أميناً لأنهم

---

(١) انظر حجة الله البالغة جـ ١ ص ١٤٨.

(٢) الانتقاء لابن عبد البر ص ١٥ - ١٦.

لم يكونوا من أهل هذا الشأن، وقدم علينا ابن شهاب فكنا نزدحم عند بابه «وهذا عبد الله ابن المبارك يقول: قلت لسفيان الثوري: إن عباد بن كثير مَنْ تعرفُ حاله، وإذا حدث جاء بأمر عظيم أترى أن أقول للناس: لا تأخذوا عنه؟ قال سفيان: بلى. قال عبد الله: فكنت إذا كنت في مجلس ذُكِرَ فيه عباد أثنيت عليه في دينه، وأقول: لا تأخذوا عنه». وهذا يحيى بن سعيد القطان يقول: «لم نر أهل الخير في شيء أكذب منهم في الحديث» [1].

وهذا سفيان الثوري يقول: إني أحب أن أكتب الحديث على ثلاثة أوجه: حديث أكتبه أريد أن أتخذه ديناً، وحديث رجل أكتبه فأوقفه لا أطرحه ولا أدين به، وحديث رجل ضعيف أحب أن أعرفه ولا أعبأ به.

والأوزاعي رضي الله عنه يقول: «تعلم ما لا يؤخذ كما تتعلم ما يؤخذ [2].

وهذا خليفة المسلمين في القرن الثاني هارون الرشيد يقول للزنديق، وقد قال: إني وضعت ألف حديث على رسول الله ﷺ: فأين أنت يا عدو الله من أبي إسحق الفزاري وعبد الله بن المبارك ينخلانها فيخرجانها حرفاً حرفاً».

من هذا كله يظهر لك جلياً ما كان عليه أئمة الحديث في هذا العصر من بصيرة نقادة ومعرفة تامة بالسنة متونها وأسانيدها فتراهم غربلوا الرواة وأقصوا كثيراً منهم عن حظيرة السنة والتمتع بشرف روايتها. كما ميزوا الأحاديث، فحديث علموا صحته وعملوا به، وحديث علموا كذبه فتركوه، وحديث تبين لهم ضعفه فلم يعتمدوا عليه

---

(١) انظر هذه الآثار في توجيه النظر ص ٣٥، ٣٦.

(٢) انظر جامع بيان العلم وفضله جـ ١ ص ٧٦.

وحده، وحديث اشتبه أمره فتوقفوا فيه حتى يظهر حاله وينكشف أمره، وتراهم يأمرون بحمل جميع مايسمعونه لينتقوا منه الصحيح حتى أصبحوا بحق صيارفة الحديث ونقاد الأسانيد.

وإليك جملة مما ذكره ابن عدي في «كامله» تلقي لنا ضوءاً على جهود هؤلاء الجهابذة في هذا العصر، قال رحمه الله ما نصه:

(وأما القرن الثاني فقد كان في أوائله من أوساط التابعين جماعة من الضعفاء، وضَعفُ أكثرهم نشأ غالباً من قبل تحملهم وضبطهم للحديث، فكانوا يرسلون كثيراً ويرفعون الموقوف، وكانت لهم أغلاط، وذلك مثل أبي هرون العبدري المتوفى سنة ١٤٣هـ. ولما كان آخر عصر التابعين وهو حدود الخمسين ومائة تكلم في التعديل والتجريح طائفة من الأئمة فَضعَّفَ الأعمشُ المتوفى سنة ١٢٨هـ جماعة ووثق آخرين. ونظر في الرجال شعبة المتوفى سنة ١٦٠هـ وكان متثبتاً لا يكاد يروي إلا عن ثقة. ومثله مالك المتوفى سنة ١٧٩ هـ، وممن كان في هذا العصر إذا قال قُبِلَ قولُهُ مَعْمر المتوفى سنة ١٥٣ وهشام الدستوائي المتوفى سنة ١٥٤ والأوزاعي المتوفى سنة ١٥٦هـ. وسفيان الثوري المتوفى سنة ١٦١ هـ، وابن الماجشون المتوفى سنة ٢١٣هـ، وحماد بن سلمة المتوفى سنة ١٦٧ هـ، والليث بن سعد المتوفى سنة ١٧٥.

وبعد هؤلاء طبقة منهم: ابن المبارك المتوفى سنة ١٨١، وهشيم بن بشير المتوفى سنة ١٨٨ هـ، وأبو إسحاق الفزاري المتوفى سنة ١٨٥ هـ، والمعافى بن عمران الموصلي المتوفى سنة ١٨٥ هـ، وبشر بن المفضل المتوفى سنة ١٨٦ هـ، وابن عيينة المتوفى سنة ١٩٧هـ، وقد كان في زمنهم طبقة أخرى منهم ابن علية المتوفى سنة ١٩٣ هـ، وابن

وهب المتوفى سنة ١٩٧ هـ. ووكيع بن الجراح المتوفى سنة ١٩٧ هـ.

وقد انتدب في ذلك الزمان لنقد الرجال الحافظان الحجتان يحيى بن سعيد القطان المتوفى سنة ١٨٩ وعبد الرحمن بن مهدي المتوفى سنة ١٩٨ هـ وكان للناس وثوق بهما فصار مَنْ وَثَّقاهُ مقبولاً ومن جرحاه مجروحاً، ومن اختلفا فيه وذلك قليل، رجعَ الناسُ إلى ما ترجح عندهم.

ثم ظهرت بعدهم طبقة أخرى يُرجَعُ إليهم في ذلك منهم: يزيد بن هارون المتوفي سنة ٢٠٦ هـ وأبو داود الطيالسي المتوفى سنة ٢٠٤ وعبد الرزاق ابن همام المتوفى سنة ٢١١ هـ وأبو عصام الضحاك النبيل بن مخلد المتوفى (سنة ٢١٢هـ) أ هـ [١].

مقاومة الخلفاء العباسيين للزنادقة:

ولقد قاوم الخلفاء الزنادقة وطهروا الأرض من جراثيمهم فلم تأخذهم بهم هوادة؛ بل قتلوهم وحبسوهم وشردوا بهم من خلفهم. اضطهدهم أبو جعفر المنصور في خلافته ونكل بهم المهدي أيما تنكيل أيام دولته وعين للزنادقة رجلاً سماه (صاحب الزنادقة) وكل إليه أمر إبادتهم والقضاء عليهم، وأمر الجدليين من أهل البحث من المتكلمين بتصنيف الكتب في الرد على الملحدين وإقامة البراهين على المعاندين وإيضاح الحق للشاكين. وأوصى ابنه موسى الهادي بالعمل على إبادة الزنادقة وشرح له أمرهم وسوء نيتهم نحو الإسلام والمسلمين، وجاء عنه أنه قال: «والله لئن عشت لأقتلن هذه الفرقة كلها حتى لا أترك منها عيناً تطرف» وقد أنفذ الهادي وصية أبيه بكل أمانة. كذلك تعقبهم هارون الرشيد والمأمون من بعده، روي أن المأمون بلغه خبر عشرة من

---

(١) توجيه النظر ص ١١٤.

الزنادقة من أهل البصرة يذهبون إلى قول (ماني) ويقولون بإله النور وإله الظلمة فأمر بحملهم إليه بعد أن سُمُّوا واحداً واحداً، فكان يدعوهم رجلاً رجلاً ويسألهم عن دينهم فيخبرونه بالإسلام، فيمتحنهم بأن يُظْهِرَ لهم صورة (ماني) ويأمرهم أن يتفلا عليها ويبرؤوا منها فامتنعوا فقتلهم، وفي عهد المعتصم كانت حادثة كبرى في تاريخ الزندقة وهي محاكمة قائد جيوشه المسمى (بالأفشين) اتهم بالزندقة فحبس ومنع من الطعام والشراب حتى مات، ثم صلب وأحرق بالنار [1].

القصص في القرن الثالث وأثره في الحديث:

كما انتشرت الزندقة في هذا العصر كذلك ذاع القَصصُ وكثر المحترفون له ولا ننس أن بين هؤلاء القصاص فريقاً من الزنادقة أيضاً (كما أشرنا إليه آنفاً) ومنهم المرتزقة ومُدَّعُو العلمِ والإمامةِ في الحديث، ولقد انتشر القصاص والزنادقة في هذا العهد حتى أن الخلفاء كانوا يصدرون أوامرهم بمنع القصاص والمنجمين من الجلوس في المساجد والطرقات، كذلك منعوا من بيع كتب الفلسفة، ففي سنة ٢٧٩ هـ وفي السنة التي بويع فيها المعتضد الخليفة العباسي بالخلافة أصدر أمره بمنع الوراقين من بيع كتب الفلاسفة وما شاكلها ومنع القصاص والمنجمين من القعود في الطريق [2].

هذا وإن أصدق مرآة تتراءى لنا فيها أعمال القصاص في هذا القرن ما ذكره العلامة الإمام عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري المتوفى سنة ٢٧٦ هـ في كتابه «تأويل

(١) انظر ضحى الإسلام جـ ١ ص ١٤٠.

(٢) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٢٤٦.

مختلف الحديث»[1]، قال رحمه الله: الحديث يدخله الشوب والفساد من وجوه ثلاثة: منها الزنادقة واحتيالهم للإسلام وتهجينه بدس الأحاديث المستشنعة والمستحيلة كالأحاديث التي قدمنا ذكرها من عرق الخيل وعبادة الملائكة وقفص الذهب على جمل أورق، وزغب الصدر، ونور الذراعين، مع أشياء كثيرة ليست تخفى على أهل الحديث، ومنهم ابن أبي العوجاء الزنديق، وصالح بن عبد القدوس الدهري.

والوجه الثاني: القصاص على قديم الأيام فإنهم كانوا يُمِيلُونَ وجوه العوام إليهم ويستدرون ما عندهم بالمناكير والغريب والأكاذيب من الأحاديث، ومن شأن العوام القعود عند القاص ما كان حديثه عجباً خارجاً عن فطر العقول أو كان رقيقاً يحزن القلب ويستغزر العيون، فإذا ذكر الجنة، قال: فيها الحوراء من مسك أو زعفران وعجيزتها ميل في ميل.

ويُبوِّئُ الله تعالى وَلِيَّهُ قصراً من لؤلؤة بيضاء فيه سبعون ألف مقصورة في كل مقصورة سبعون ألف قبة في كل قبة سبعون ألف فراش، على كل فراش سبعون ألف كذا وكذا فلا يزال في سبعين ألف كذا وسبعين ألف كذا كأنه يرى أنه لا يجوز أن يكون العدد فوق السبعين ألفاً ولا دونها، ويقول: لأصغرِ مَنْ في الجنة منزلةٌ عند الله من يعطيه الله تعالى مثل الدنيا كذا وكذا ضعفاً، وكلما كان هذا أكثر كان العجب أكثر والقعود عنده أطول والأيدي بالعطاء إليه أسرع، والله تبارك وتعالى يخبرنا في كتابه بما في جنته بما فيه مقنع عن أخبار القصاص وسائر الخلق إلى أن قال: ثم يذكر آدم عليه السلام، ويصفه فيقول: كان رأسه يبلغ السحاب أو السماء ويُحاكِهَا، فاعتراه لذلك الصلع ولما

---

(١) ص ٣٥٥ وما بعدها.

هبط على الأرض بكى على الجنة حتى بلغت دموعه البحر وجرت فيها السفن، ويذكر داود عليه السلام فيقول: سجد لله تعالى أربعين ليلة وبكى حتى نبت العشب بدموع عينيه، ثم زفر زفرة هاج له ذلك النبات.

ويذكر عصا موسى عليه السلام فيقول: كان نابها كنخلة سحوق وعينها كالبرق الخاطف وعرفها كذا ثم قال: ويذكر عباداً أتاهم يونس عليه السلام في جبل لبنان فيخبرهم عن الرجل منهم أنه كان يركع ركعة في سنة ويسجد نحو ذلك ولا يأكل إلا في كذا وكذا من الزمان.

ثم قال: وأما الوجه الثالث الذي يقع فيه فساد الحديث فأخبار متقادمة كان الناس في الجاهلية يروونها تشبه أحاديث الخرافة كقولهم أن الضب كان يهودياً عاقاً فمسخه الله تعالى ضباً، وكقولهم في الديك والغراب أنهما كانا متنادمين فلما نفد شرابهما رهن الغراب الديك عند الخمار ومضى، فلم يرجع إليه وبقي الديك عند الخمار حارساً. أ هـ.

وروى السيوطي في كتابه [1] «تحذير الخواص من أكاذيب القصاص» عن جعفر بن محمد الطيالسي قال: «صلَّى أحمد بن حنبل ويحيى بن معين في مسجد الرصافة فقام بين أيديهم قاص فقال: حدثنا أحمد بن حنبل ويحيى بن معين قالا: حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: من قال لا إله إلا الله خلق الله من كل كلمة طيراً منقاره من ذهب وريشه من مرجان، وأخذ في قصه نحواً من عشرين ورقة فجعل أحمد ينظر إلى يحيى بن معين ويحيى ينظر إلى أحمد فقال له: أنت

---

(١) ص ٤٨ وما بعدها.

حدثته بهذا؟ فقال: والله ما سمعت بهذا إلا الساعة، فلما فرغ من قصصه وأخذ القطيعات ثم قعد ينتظر بقيتها، قال يحيى بن معين بيده: تعالَ فجاء متوهماً لنوالٍ، فقال له يحيى: من حدثك بهذا الحديث؟ فقال: أحمد بن حنبل ويحيى بن معين، فقال له: أنا يحيى بن معين وهذا أحمد بن حنبل، ما سمعنا بهذا قط في حديث رسول الله ﷺ، فإن كان ولابد والكذب فعلى غيرنا. فقال له:أنت يحيى بن معين. قال نعم. قال: لم أزل أسمع أن يحيى بن معين أحمق ما حَقَّقتهُ إلا الساعةَ. فقال له يحيى: وكيف علمتَ أني أحمق؟ قال: كأن ليس في الدنيا يحيى بن معين وأحمد بن حنبل غيركما، قد كتبت عن سبعة عشر أحمد بن حنبل ويحيى بن معين. فوضع أحمد كُمَّهُ على وجهه، وقال: دعه يقوم فقام كالمستهزئ بهما» أ هـ.

تراجم لبعض أئمة الحديث في هذا العصر:

اشتهر في هذا القرن كثير من نحارير المحدثين وجهابذة السنة كانت لهم أياد بيضاء في خدمة الحديث ومعرفة رجاله والبحث عن علله وإليك طائفة منهم:

علي بن المديني:

كان من أئمة الحديث الممتازين لم يترك باباً من أبوابه إلا طرقه وبخاصة ما يرجع إلى الرجال والعلل، وقد صنف في ذلك الكتب الكثيرة التي لم يسبق إلى معظمها ولم يلحق في كثير منها. لذا أثنى عليه العلماء وشهدوا له بالتقدم والمعرفة، فسفيان بن عيينة وهو من شيوخه يقول: (والله لقد كنت أتعلم منه أكثر مما يتعلم مني). وكذلك قال يحيى بن القطان وهو من مشايخه، وقال البخاري: (ما استصغرتُ نفسي عند أحد قط إلا عند علي بن المديني)، وقال أبو حاتم: (كان ابن المديني عَلَماً في معرفة الحديث

والعلل)، هذا وقد ذكر الحاكم في معرفة علوم الحديث جملة وافرة من مؤلفاته تدل على رسوخ قدمه واتساع أفقه في علوم السنة، فمن ذلك كتاب المدلسين خمسة أجزاء. وكتاب الضعفاء عشرة أجزاء، وكتاب علل المسند ثلاثون جزءاً، وكتاب علل حديث ابن عيينة ثلاثة عشر جزءاً؛ وكتاب من لا يحتج بحديثه ولا يسقط جزءان، وكتاب الكنى خمسة أجزاء، وكتاب الوهم والخطأ خمسة أجزاء، وكتاب من نزل من الصحابة سائر البلدان خمسة أجزاء، وكتاب من حدث ثم رجع عنه جزءان، وكتاب اختلاف الحديث خمسة أجزاء، وكتاب العلل المتفرقة ثلاثون جزءاً، وكتاب مذاهب المحدثين جزءان. إلى غير ذلك من مصنفاته الباهرة التي تدل على تبحره وتقدمه وكمال معرفته. توفي رحمه الله سنة ٢٣٤ هـ. بسرمن رأى [سامراء] (١).

يحيى بن معين:

هو أحد الأئمة الأربعة الذين انتهت إليهم الزعامة في الحديث ـ أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، وعلي بن المديني، وأبو بكر بن أبي شيبة ـ سمع الحديث من ابن المبارك وابن عيينة وابن مهدي وهشيم ووكيع وغيرهم، وسمع منه أبو زرعة الرازي وأبو حاتم والبخاري ومسلم وأبو داود وكثير غيرهم.أجمع العلماء على إمامته وجلالته في هذا الشأن لا سيما ما يتعلق بالجرح والتعديل وكشف حال الكذابين مع التثبت والتمكن حتى رووا عنه أنه استقبل القبلة ورفع يديه يقول: (اللهم إن كنت تكلمت في رجل ليس هو عندي كذاباً فلا تغفر لي)، ورووا عنه أنه قال: (لو لم نكتب الحديث من

---

(١) تهذيب الأسماء للنووي جـ ١ ص ٣٥٠ فهرست ابن النديم ص ٣٢٢ ومعرفة علوم الحديث للحاكم ص ٧١.

ثلاثين وجهاً ما علقناه). قال فيه أحمد بن حنبل: (السماع من يحيى بن معين شفاء لما في الصدور) وقال أيضاً: (يحيى بن معين رجل خلقه الله لهذا الشأن يُظهِرُ كذبَ الكذابين وكل حديث لا يعرفه يحيى ليس بحديث) وقال ابن المديني: (ما رأيت في الناس مثله) وقد عده الحاكم في كتابه علوم الحديث من فقهاء المحدثين. توفي بالمدينة المنورة سنة (٢٣٣) ودفن بالبقيع، ونودي يوم وفاته: هذا الذي كان ينفي الكذب عن حديث رسول الله ﷺ[1].

أبو بكر بن أبي شيبة:

هو الحافظ المتقن عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي. روى عن أبي الأحوص، وابن المبارك، وشريك، وهشيم، وجرير بن عبد الحميد ووكيع، وابن علية، وابن مهدي، وابن القطان، وابن عيينة، وزيد بن هارون، وخلق كثير.

وروى عنه البخاري ومسلم وأبو داود وابن ماجه، وروى له النسائي بواسطة أحمد بن علي القاضي، وابنه أبو شيبة إبراهيم، وأحمد بن حنبل ومحمد بن سعد وأبو زرعة وأبو حاتم وعبد الله بن أحمد بن حنبل وإبراهيم الحربي وكثير غيرهم.

كان أبو بكر ثقة حافظاً للحديث أثنى عليه بالحفظ والاتقان كثير من أهل عصره. قال أبو عبيد القاسم: (انتهى العلم إلى أربعة: فأبو بكر أسردهم له، وأحمد أفقههم فيه، ويحيى أجمعهم له، وعلي أعلمهم به). وقال صالح بن محمد: (أَعلمُ مَنْ أدركت بالحديث وعلله علي بن المديني وأعلمهم بتصحيف المشايخ يحيى بن معين

---

(١) تهذيب الأسماء للنووي جـ ١ ص ١٥٦ ـ الفهرست لابن النديم ص ٣٢٢ ـ معرفة علوم الحديث للحاكم ص ٧٢.

وأحفظهم عند المذاكرة أبو بكر بن أبي شيبة). وقال أبو زرعة الرازي: (ما رأيت أحفظ من أبي بكر بن أبي شيبة) وقال ابن حبان: كان متقناً حافظاً ديناً ممن كتب وجمع وصنف وذاكر، وكان أحفظ أهل زمانه للمقاطيع. توفي رضي الله عنه سنة (٢٣٥) (١).

أبو زرعة الرازي:

هو عبد الله بن عبد كريم أحد الحفاظ المشهورين أثنى عليه أهل عصره بالعلم والورع والحفظ وشهدوا له بالتفوق على أقرانه. قالوا: كان يحفظ سبعمائة ألف حديث. وكان في شبيبته إذا اجتمع بأحمد بن حنبل اقتصر أحمد على الصلوات المكتوبات ولا يفعل المندوبات اكتفاء بمذاكرته: وحسبك هذا من مثل أحمد بن حنبل دليلاً على إتقان أبي زرعة وحفظه وضبطه. روى الحاكم في معرفة علوم الحديث: (لما انصرف قتيبة بن سعد إلى الري سألوه أن يحدثهم فامتنع وقال: أحدثكم بعد أن حضر المجلس أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وعلي بن المديني وأبي بكر بن أبي شيبة وأبي خيثمة. فقالوا له: إن عندنا غلاماً يسرد كل ما حدثت به مجلساً مجلساً. قم يا أبا زرعة فقام أبو زرعة فسرد كل ما حدث به قتيبة فحدثهم قتيبة) وعدَّه الحاكم في فقهاء الحديث في كتابه المذكور. توفي رحمه الله سنة (٢٦٤) (٢).

أبوحاتم الرازي:

هو محمد بن إدريس بن المنذر بن داود بن مهران أبو حاتم الحنظلي الرازي أحد الأئمة الحفاظ الأثبات العارفين بعلل الحديث والجرح والتعديل، وهو قرين أبي زرعة

---

(١) تهذيب التهذيب جـ ٦ ص ٢.

(٢) تاريخ ابن كثير جـ ١١ ص ٣٧. معرفة علوم الحديث ٧٥ وما بعدها.

سمع الكثير وطاف الأقطار وروى عن كثير من الأئمة الكبار. جاء عنه أنه قال لابنه عبد الرحمن: «يا بني مشيت علي قدمي في طلب الحديث أكثر من ألف فرسخ»، وكان يتحدى من حضر عنده من الحفاظ وغيرهم يقول: من أغرب عليَّ بحديث واحد صحيح فله عليَّ درهم أتصدق به، قال: ومرادي (سمعَ ما ليس عندي) فلم يأت أحد بشيء من ذلك وكان من جملة من حضر أبو زرعة الرازي. أجمعوا على جلالته وعلو شأنه في الحديث وعلله، وعده الحاكم من فقهاء الحديث. توفي رحمه الله سنة (٢٧٧)[1].

محمد بن جرير الطبري:

هو أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطبري.

ولد بآمل سنة (٢٢٤) واستوطن بغداد حتى توفي بها، وكان يعد في طبقة الترمذي والنسائي. سمع كثيراً من شيوخ البخاري ومسلم وغيرهم، وحدث عنه كثير من العلماء منهم أحمد بن كامل، ومحمد بن عبد الله الشافعي، ومخلد بن جعفر. كان ابن جرير من أكابر الأئمة يُحكَمُ بقوله ويُرجَعُ إلى معرفته وعلمه حافظاً لكتاب الله عارفاً بالقراءات كلها بصيراً بالمعاني فقيهاً في الأحكام عالماً بالسنن وطرقها وصحيحها وسقيمها وناسخها ومنسوخها، عارفاً بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم، عارفاً بأيام الناس وأخبارهم، وله من المصنفات كتابه المشهور (تاريخ الأمم والملوك) وكتاب التفسير الذي قال فيه أبو حامد الإسفرائيني:

(لو سافر رجل إلى الصين ليحصل تفسير ابن جرير الطبري لم يكن هذا كثيراً)

---

(١) تاريخ ابن كثير جـ ١١ ص ٥٩. معرفة علوم الحديث للحاكم ص ٧٦.

وكتاب (تهذيب الآثار) إلا أنه لم يتمه ولو تم لكان آية في علوم السنة. ابتدأ فيه بما رواه أبو بكر الصديق وتكلم على كل حديث وعلته وطرقه وما فيه من الفقه واختلاف العلماء وحججه واللغة فتم مسند العشرة وأهل البيت والموالي وقطعة من مسند ابن عباس وهو من عجائب كتبه.

توفي رحمه الله سنة (٣١٠) [١].

ابن خزيمة:

هو محمد بن إسحاق أبو بكر بن خزيمة النيسابوري إمام الأئمة. رحل إلى الري وبغداد والبصرة والكوفة والشام والجزيرة ومصر وواسط، وسمع الحديث من خلق كثير منهم: إسحاق بن راهويه ومحمد بن حميد الرازي ولم يحدث عنهما لكونه سمع منهما في صغره. وحدث عن محمود بن غيلان ومحمد بن أبان المستملي وإسحاق بن موسى الخطمي وأبي قدامة السرخسي وغيرهم، وروى عنه الأئمة الكبار كالبخاري ومسلم خارج الصحيح ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم شيخه ويحيى بن محمد بن صاعد وأبو علي الغساني وإسحاق بن سعد النسوي وخلائق كثير.

كان ابن خزيمة قبلة العلم والعلماء وإماماً يقصده الناس من كل ناحية.

كالبحر يقذف للقريب جواهراً كرماً ويبعث للغريب سحائبا

وكان شديد التحري للحديث حتى ليتوقف في التصحيح لأدنى كلام يقال في الإسناد. روى الحاكم عن أبي العباس بن سريج أنه قال فيه: (إنه يخرج النكت من

(١) تاريخ ابن كثير جـ ١١ ص ١٤٥ وما بعدها ـ ومفتاح السنة ص ٣٣ طبقات الشافعية الكبرى جـ٢ ص ١٣٥.

حديث رسول الله ﷺ بالمنقاش) وقال الربيع بن سليمان: (استفدنا من ابن خزيمة أكثر مما استفاد منا) وقال محمد بن حبان التميمي: (ما رأيت على وجه الأرض من يحسن صناعة السنن ويحفظ ألفاظها الصحاح وزياداتها حتى كأن السنن كلها بين عينيه إلا محمد بن إسحاق)، وقال الدارقطني:(كان ابن خزيمة إماماً ثبتاً معدوم النظير). عدَّه الحاكم من فقهاء الحديث قال: (ومصنفاته تزيد على مئة وأربعين كتاباً سوى المسائل، والمسائل المصنفة أكثر من مائة جزء، فإن فقه حديث بريرة ثلاثة أجزاء، ومسألة الحج خمسة أجزاء) وله كتاب الصحيح وهو من أجل كتب الحديث يتلو صحيح مسلم بن الحجاج على ما ذكره السيوطي في ألفيته إلا أنه قد انعدم أكثره. توفي رحمه الله سنة (٣١١) [1].

محمد بن سعد كاتب الواقدي:

هو الإمام الحافظ المؤرخ الثقة أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع القرشي الهاشمي ولاءً البصري ثم البغدادي. كان أبوه مولى الحسين بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب الهاشمي. ولد بالبصرة سنة ١٦٨ وتوفي ببغداد سنة ٢٣٠.

روى عن محمد بن عمر الواقدي، وبه تخرج، وعن ابن عُلَيَّة وسفيان بن عيينة ويزيد بن هارون الواسطي وعبيد الله بن موسى العبسي، وأبي نعيم الفضل بن دكين الكوفي وغيرهم من شيوخ الرواية بالبصرة والكوفة وواسط وبغداد ومكة المكرمة والمدينة المنورة والشام واليمن ومصر وسائر البلاد، وهو من المكثرين جداً من الرواية

(١) الطبقات الكبرى للشافعية جـ ٢ ص ١٣٠. معرفة علوم الحديث للحاكم ص ٨٣ ـ الرسالة المستطرفة للكتاني ص ١٧.

عن شيوخ الأمصار وعمدته في العلم ذلك البحر المواج محمد بن عمر الواقدي وممن روى عنه مصعب الزبيري، والحارث محمد بن أبي أسامة صاحب المسند، وأحمد بن عبيد بن ناصح الهاشمي، وأحمد بن يحيى بن جابر البلاذري صاحب فتوح البلدان، وأبو بكر عبد الله بن محمد المعروف بابن أبي الدنيا، والحسين بن محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن فهم راوية الطبقات الكبرى عن ابن سعد وهو الذي قال عن شيخه: (كان كثير العلم كثير الكتب كتب الحديث والفقه والغريب).

كان ابن سعد مَرْضِياً عند الرواة حيث لم يلابس الفتن الهوجاء في عهد المأمون وبعده فأمكنه ذلك نشر علمه وعلم أستاذه وبقيت كتبه محفوظة مقبولة عندهم، ومن أهمها كتاب «الطبقات الكبير» جمع فيه صفوة ما ذكره علماء السير أمثال الشعبي، والأوزاعي، وموسى بن عقبة، ومحمد بن إسحاق الواقدي. ذكر في هذا الكتاب أخبار الأنبياء عليهم السلام وسائر آباء سيد المرسلين وخاتمهم محمد ﷺ تمهيداً لذكر سيره ومغازيه عليه السلام، وبعد أن انتهى من السيرة النبوية ذكر طبقات الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى وقته ووزعهم على أمصار المسلمين: المدينة المنورة، ومكة المكرمة، والشام، واليمن، ومصر، والكوفة، والبصرة، وبغداد، وسائر البلدان، وهوأقدم كتاب متوارث في موضوعه لا يستغني عنه محدث ولا فقيه ولا مؤرخ وقد أجاد فيه وأحسن. لكن ليس كل ما فيه من الروايات قوياً؛ بل بين أسانيده ما هو مقطوع أو مرسل. وإنما فعل ذلك ليستوفي جميع ما ورد في الموضوع الذي يبحث عنه، وتمحيص هذه الأسانيد هين عند أهل العلم. هذا والذين جاؤوا بعد ابن سعد ممن كتب في الرجال هم عَالَةٌ على علمه ومع ذلك فقد فاتهم ترتيبه وسياق أسانيده بسبب اختصارهم [١].

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب ومقدمة الطبقات الكبرى للشيخ محمد زاهد الكوثري. طبع مصر.

إسحق بن راهويه:

هو إسحق بن إبراهيم بن مخلد بن إبراهيم أبو يعقوب الحنظلي المروزي المعروف بابن راهويه ـ راهويه لقب أبيه إبراهيم ـ كان من أئمة المسلمين والعلماء البارزين، جمع إلى إمامته في الحديث إمامته في الفقه وبراعته فيه مع الحفظ والصدق والورع والزهد. رحل إلى العراق والحجاز واليمن والشام، وسمع جرير بن عبد الحميد الرازي، وإسماعيل بن علية، وسفيان بن عيينة ووكيع بن الجراح، وبقية بن الوليد، وعبد الرزاق بن همام، والنضر بن شميل وآخرين، وروى عنه محمد بن إسماعيل البخاري، ومسلم بن الحجاج النيسابوري، ومحمد بن نصر المروزي، وأبو عيسى الترمذي، وأحمد بن سلمة وكثير غيرهم.

وروى عنه من قدماء شيوخه يحيى بن آدم [1]، وبقية بن الوليد، ومن أقرانه أحمد بن حنبل، وكان رحمه الله مضرب المثل في الحفظ والإتقان والإمامة والصدق قال عن نفسه: (أعرف مكان مائة ألف حديث كأني أنظر إليها، وأحفظ سبعين ألف حديث عن ظهر قلب، وأحفظ أربعة آلاف حديث مزورة. فقيل له: ما معنى حفظ المزورة؟ قال: إذا مر بي منها حديث في الأحاديث الصحيحة فلَّيته منها فلياً)، وقيل له: إنك تحفظ مائة ألف حديث؟ قال: (مائة ألف ما أدري ما هو ولكني ما سمعت شيئاً قط إلا حفظته ولا حفظت قط شيئاً فنسيته)، وقال أبو داود الخفاف: (أملى علينا إسحاق بن راهويه أحد عشر ألف حديث من حفظه ثم قرأها علينا فما زاد حرفاً ولا نقص حرفاً)، وقال أبو حاتم الرازي: (ذكرت لأبي زرعة إسحاق بن إبراهيم الحنظلي وحفظه

---

(١) روي عن إسحاق بن راهويه قال: كتب عني يحيى بن آدم ألفي حديث.

للأسانيد والمتون فقال أبو زرعة: ما رؤي أحفظ من إسحاق)، قال أبو حاتم: (والعجب من إتقانه وسلامته من الغلط مع ما رزق من الحفظ) وكلام الأئمة في الثناء على إسحق يطول ذكره فنكتفي بذلك. قال أبو داود: (إسحاق بن راهويه تغير قبل أن يموت بخمسة أشهر، وسمعت منه في تلك الأيام ورميت به. ولد سنة ١٦١ وتوفي سنة ٢٣٨ بنيسابور عن سبع وسبعين سنة [١].

الإمام أحمد بن حنبل:

هو إمام الأئمة وحافظ الأمة وفقيهها أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني المروزي ثم البغدادي.

ولد في بغداد سنة ١٦٤. وفي حداثته كان يختلف إلى مجلس القاضي أبي يوسف ثم ترك ذلك، وأقبل على سماع الحديث سنة ١٨٧. وقد طاف في البلاد والآفاق وسمع من مشايخ العصر وكانوا يُجِلُّونه ويحترمونه، ومن مشايخه: هشيم وإبراهيم بن سعيد وسفيان بن عيينة، وتفقه بالشافعي حين قدم بغداد ولزمه واستفاد منه،وعني عناية عظيمة بالسنة والفقه حتى عده أهل الحديث إمامهم وفقيههم، وقد أخذ عنه الحديث جماعة من الأماثل منهم: محمد بن إسماعيل البخاري ومسلم بن الحجاج النيسابوري والشافعي وعبد الرزاق ووكيع وهؤلاء الثلاثة من شيوخه.

وقد كان الإمام الشافعي على جلالة قدره في الحديث والفقه يعتمد الإمام أحمد في تصحيح الأحاديث وتضعيفها، ولذلك لما اجتمع به في بغداد سنة ١٩٨. قال له: يا أبا عبد الله إذا صح عندكم الحديث فأعلمني به أذهب إليه حجازياً كان أو شامياً أو

(١) تاريخ بغداد للخطيب جـ ٦ ص ٣٤٥ وما بعدها.

عراقياً أو يمنياً، وعمر أحمد إذ ذاك نيف وثلاثون سنة، وقال الشافعي: خرجت من العراق فما تركت رجلاً أفضل ولا أعلم ولا أورع ولا أتقى من أحمد بن حنبل، وكذلك اعترف له بعلوِّ المكانة في العلم والحديث علماء عصره على اختلاف ميولهم ومشاربهم، قال إسحاق بن راهويه: (أحمد حجة بين الله وبين عبيده في أرضه) وقال يحيى بن معين: (كان في أحمد بن حنبل خصال ما رأيتها في عالم قط كان محدثاً وكان حافظاً وكان عالماً وكان ورعاً وكان زاهداً وكان عاقلاً) وقال أيضاً: (أراد الناس منا أن نكون مثل أحمد بن حنبل والله ما نَقْوى أن نكونَ مثله ولا نطيقُ سلوكَ طريقه) أ هـ.

وقد استحوذ جماعة من المعتزلة على المأمون ثم المعتصم ثم الواثق ودعوهم إلى أن يحملوا الناس على القول بخلق القرآن، وممن أريد على ذلك الإمام أحمد بن حنبل فأبى كل الإباء فضرب وحبس وهو مُصرٌّ على الامتناع سنة (٢٢٠) في عهد المعتصم. قال بشر الحافي بعد ما ضرب أحمد: (أُدخلَ أحمد الكِيرَ فخرج ذهباً أحمر) وقال علي بن المديني: (ما قام أحد في الإسلام ما قام أحمد بن حنبل) ولما بلغت هذه المقالة أبا عبيد القاسم بن سلام قال: (صدق علي، إن أبا بكر وجد يوم الردة أنصاراً وأعواناً، وإن أحمد بن حنبل لم يكن له أنصار ولا أعوان) ثم أخذ أبو عبيد يُطْرِيه ويقول: (لست أعلم في الإسلام مثله). وقد توفي أحمد رحمه الله سنة ٢٤١ ببغداد وله عند العلماء حسن الذكرى وجميل الأحدوثة ـ تاريخ ابن كثير (١٠ - ٣٣٥).

الإمام البخاري:

هو إمام المحدثين وشيخ الحفاظ أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي مولاهم. إمام أهل الحديث في زمانه، والمقتدى به في أوانه

والمقدم على سائر أقرانه. ولد البخاري رحمه الله ببخارى سنة (١٩٤) هـ وألهمه الله حفظ الحديث وهو في المكتب. قال الفربري: سمعت محمد بن أبي حاتم وراق البخاري يقول: سمعت البخاري يقول: أُلهمت حفظ الحديث وأنا في الكتاب، قلت: وكم أتى عليك إذ ذاك فقال: عشر سنين أو أقل ثم خرجت من الكتاب فجعلت أختلف إلى الداخلي وغيره فقال يوماً فيما كان يقرأ الناس: سفيان عن أبي الزبير عن إبراهيم. فقلت: إن أبا الزبير لم يرو عن إبراهيم فانتهرني، فقلت له: ارجع إلى الأصل إن كان عندك فدخل فنظر فيه ثم رجع فقال كيف هو يا غلام؟ فقلت: هو الزبير وهو ابن عدي عن إبراهيم فأخذ القلم وأصلح كتابه وقال لي صدقت قال: فقال له إنسان: ابن كم حين رددت عليه؟ فقال ابن إحدى عشرة سنة، قال: فلما طعنت في ست عشرة سنة حفظتُ كتب ابن المبارك ووكيع وعرفت كلام هؤلاء، يعني أصحاب الرأي، قال: ثم خرجت مع أمي وأخي إلى الحج. قال: ولما طعنت في ثماني عشرة صنفت كتاب قضايا الصحابة والتابعين، ثم صنفت التاريخ في المدينة عند قبر النبي ﷺ وكنت أكتبه في الليالي المقمرة وقَلَّ اسمٌ في التاريخ إلا وله عندي قصة ألا إني كرهت أن يطول الكتاب.

ارتحل البخاري لطلب الحديث وتنقل في البلاد.قال سهل ابن السري: قال البخاري:

دخلت إلى الشام ومصر والجزيرة مرتين وإلى البصرة أربع مرات، وأقمت بالحجاز ستة أعوام ولا أحصي كم دخلت إلى الكوفة وبغداد مع المحدثين، وكان لا يُجَارَى في حفظ الحديث سنداً ومتناً مع تمييزه للصحيح منه والسقيم. دخل مرة إلى سمرقند فاجتمع بأربعمائة من علماء الحديث بها، فجعلوا متون الأحاديث على غير أسانيدها وخلطوا في الأسانيد فأدخلوا إسناد الشام في إسناد العراق ثم قرؤءها على

البخاري يقصدون امتحانه، فردَّ كل حديث إلى إسناده، وَقَوَّمَ تلك الأحاديث والأسانيد كلها، ولم يقدروا أن يأخذوا عليه سَقطةً في إسناد ولا متن، وكذلك صنعوا معه في بغداد فأذعنوا له بالفضل والسبق، وقد ذكروا أنه كان ينظر في الكتاب فيحفظه من نظرة واحدة، والأخبار عنه في ذلك كثيرة.

وقد أثنى عليه علماء زمانه من شيوخه وأقرانه. فقال الإمام أحمد: ما أخرجت خراسان مثله، وقال ابن المديني: لم ير البخاري مثل نفسه، وقال محمود بن النضر بن سهل الشافعي: دخلت البصرة والشام والحجاز والكوفة، ورأيت علماءها كلما جرى ذِكْرُ محمد بن إسماعيل البخاري فَضَّلوه على أنفسهم. وقال أحمد بن حمدون القصار: (رأيت مسلم بن الحجاج جاء إلى البخاري فَقبَّلَ بين عينيه، وقال: دعني أقبل رجليك يا أستاذ الأستاذين وسيد المحدثين وطبيب الحديث في علله، ثم سأله عن حديث كفارة المجلس، فذكر له عِلَّته، فلما فرغ قال مسلم: لا يبغضك إلا حاسد، وأشهد أنْ ليس في الدنيا مثلك)،وقال الترمذي: (لم أر بالعراق ولا بخراسان في معنى العلل والتاريخ ومعرفة الأسانيد أعلم من البخاري) وقال ابن خزيمة: (ما رأيت تحت أديم السماء أعلم بحديث رسول الله ﷺ ولا أحفظ له من محمد بن إسماعيل البخاري).

وكان البخاري رحمه الله من الأئمة المجتهدين في الفقه واستنباط الأحكام من السنن والآثار ومما يؤثر عنه قوله: (لا أعلم شيئاً يحتاج إليه إلا وهو في الكتاب والسنة) فقيل له: يمكن معرفة ذلك؟ فقال: نعم، وتراجمه على الأحاديث في كتابه الجامع الصحيح تدل على ذلك. قال إسحاق بن راهويه أحد شيوخه: (لو كان البخاري في زمن الحسن لاحتاج الناس إليه في الحديث ومعرفته وفقهه)، وقال أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي: (محمد بن إسماعيل البخاري أفقهنا وأعلمنا وأغوصنا وأكثرنا

طلباً) وقال ابن كثير في التاريخ: (ومنهم من فَضَّله في الفقه والحديث على الإمام أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه).

وقد كان البخاري رحمه الله في غاية الحياء والشجاعة والسخاء والورع والزهد في الدنيا شريف النفس بعيداً عن الأمراء والسلاطين حتى أن أمير بخارى خالد بن أحمد الذهلي طلب إليه أن يحضر ليسمع أولاده منه فأبى أن يذهب، وقال: في بيته يُؤتى العلمُ، فأراد الأمير أن يصرف الناس عن السماع منه فلم يقبلوا من الأمير، فأمر عند ذلك بنفيه، فنزح البخاري من بلده إلى بلدة يقال لها (خرتنك) على فرسخين من سمرقند، وجعل يدعو الله أن يقبضه إليه حين رأى الفتن في الدين فمرض على أثر ذلك، وتوفي ليلة عيد الفطر عن اثنتين وستين سنة وقد ترك بعده علماً نافعاً لجميع المسلمين بما بثه في مؤلفاته من العلم الغزير. ومن هذه المؤلفات:

قضايا الصحابة والتابعين، والتاريخ الكبير، والتاريخ الأوسط، والتاريخ الصغير، والأدب المفرد، والقراءة خلف الإمام، وبر الوالدين، وخلق أفعال العباد، وكتاب الضعفاء، والجامع الكبير، والمسند الكبير، والتفسير الكبير، وكتاب الأشربة، وكتاب الهبة، وأسامي الصحابة، وكتاب الوحدان، وكتاب المبسوط، وكتاب العلل، وكتاب الكنى وكتاب الجامع الصحيح وهو أجل كتبه نفعاً وأعلاها قدراً. رحم الله البخاري رحمة واسعة وأجزل له العطاء آمين [١].

---

(١) تاريخ ابن كثير جـ ١١ ص ٢٤ وما بعدها ومفتاح السنة ص ٣٨ ـ ٣٩ ـ مقدمة فتح الباري الجزء الثاني ص ١٩٣ وما بعدها.

الإمام مسلم بن الحجاج:

هو الإمام الكبير وحافظ الحفاظ أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري. ولد بنيسابور سنة (٢٠٤)، وطلب الحديث صغيراً ورحل في طلبه إلى جميع محدثي الأمصار فرحل إلى العراق والحجاز والشام ومصر، وأخذ عن شيوخها من مشايخ البخاري وغيرهم. ولما ورد البخاري نيسابور في آخر أمره لازمه مسلم وأدام الاختلاف إليه ونظر في علمه وحذا حذوه وكان يناضل عنه، وقد هجر من أجله شيخه محمد بن يحيى الذهلي لما قال يوماً لأهل مجلسه وفيهم مسلم بن الحجاج: ألا من كان يقول بقول البخاري في مسألة «اللفظ بالقرآن» فليعتزل مجلسنا، فنهض مسلم من فوره إلى منزله وجمع ما كان سمعه من الذهلي وأرسله إليه وترك الرواية عنه في الصحيح وغيره.

روى عن مسلم جماعة كثيرون من أئمة عصره وحفاظه وفيهم طائفة من أقرانه ومنهم: أبوحاتم الرازي وموسى بن هارون وأحمد بن سلمة والترمذي وغيرهم. أجمعوا على جلالته وإمامته وعلو مرتبته في السنة وحذقه فيها وتضلعه منها ومن أكبر الدلائل على ذلك كتابه الصحيح الذي لم يوجد في كتاب قبله ولا بعده ما فيه من حُسْنِ الترتيب وتلخيص طرق الحديث بغير زيادة ولا نقصان والاحتراز من التحويل في الأسانيد عند اتفاقها من غير زيادة، وتنبيهه على ما في ألفاظ الرواة من اختلاف في المتن أو الأسانيد ولو قل، واعتنائه بالتنبيه على الروايات المصرحة بسماع المدلسين وغير ذلك مما هو معروف في كتابه، وقد أثنى عليه كثير من العلماء من أهل الحديث وغيرهم. قال أحمد بن سلمة: (سمعت أبا زرعة وأبا حاتم يقدمان مسلم بن الحجاج في معرفة الصحيح على مشايخ عصرهما) وقال إسحاق بن منصور لمسلم: (لن نعدم الخير ما

أبقاك الله للمسلمين).

صنف مسلم في علم الحديث كتباً كثيرة منها كتابه الصحيح الذي مَنَّ الله به على المسلمين ومنها الكتاب المسند الكبير على أسماء الرجال، وكتاب الجامع الكبير على الأبواب. وكتاب العلل، وكتاب أوهام المحدثين، وكتاب التمييز، وكتاب مَنْ ليس له إلا راوٍ واحد، وكتاب طبقات التابعين وكتاب المخضرمين وغير ذلك. توفي رحمه الله بنيسابور (٢٦١) عن ٥٧ عاماً (تهذيب الأسماء وتاريخ ابن كثير ١١ - ٣٢).

الإمام النسائي:

هو الحافظ أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي بن بحر بن سنان بن دينار النَّسَائِيُّ نسبة إلى نَسَاء بلدة مشهورة بخراسان، ويقال النَّسَويُّ بقلب الهمزة واواً. ولد رحمه الله سنة (٢١٥) وكان أحد أعلام الدين وأئمة الحديث إمام أهل عصره وقدوتهم بين أصحاب الحديث في معرفة الجرح والتعديل. قال الحاكم أبو عبد الله: (سمعت الدارقطني غير مرة يقول: أبو عبد الرحمن مقدم على كل مَنْ يُذكر بعلم الحديث من أهل زمانه في جرح الرواة وتعديلهم وكان شديد التحفظ والورع فتراه يقول في سننه وهو يروي عن الحارث بن مسكين: هكذا قرئ عليه وأنا أسمع ولا يقول في الرواية عنه: حدثنا أو أخبرنا كما يقول في روايات أخرى عن مشايخه).

سمع إسحق بن راهويه، وأبا داود السجستاني، ومحمود بن غيلان وقتيبة بن سعيد وعلي بن خشرم وغيرهم من أهل خراسان والحجاز والجزيرة ومصر والشام وغيرها، وأخذ عنه الحديث خلق كثير منهم: الدولابي، وأبو القاسم الطبراني وأبو جعفر الطحاوي ومحمد بن هارون بن شعيب.

رحل وهو ابن (١٥) سنة إلى قتيبة بن سعيد البلخي ومكث عنده سنة وشهرين وأخذ عنه الحديث وقدم مصر وأقام بها طويلاً وانتشرت بها تصانيفه وأخذ عنه الناس ثم خرج منها سنة (٣٠٢) إلى دمشق فسئل عن معاوية وما روي من فضائله فَفَضَّلَ علياً عليه فما زالوا به حتى قتلوه ضرباً. قال الدارقطني: (لما امتحن النسائي بدمشق قال احملوني إلى مكة فحمل إليها فتوفي بها ودفن بين الصفا والمروة) وصَوَّبَ الذهبي أنه مات بالرملة بفلسطين.

نقل التاج السبكي عن شيخه الحافظ الذهبي ووالده التقي السبكي أن النسائي أحفظ من مسلم صاحب الصحيح، وأن سننه أقل السنن بعد الصحيحين حديثاً ضعيفاً، بل قال بعض الشيوخ أنه أشرف المصنفات كلها وما وضع في الإسلام مثله، وقد قال ابن منده وابن السكن وأبو علي النيسابوري وأبو أحمد بن عدي والخطيب والدارقطني: (كل ما في سنن النسائي صحيح لكن في هذا تساهل صريح) وشذ بعض المغاربة ففضله على كتاب البخاري ولعله لبعض الحيثيات الخارجة عن كمال الصحة، وقال أبو علي النيسابوري: (للنسائي شرط في الرجال أشد من شرط مسلم)، وهذا القول غير مسلم، قال البقاعي في شرح الألفية عن ابن كثير: (إن في النسائي رجالاً مجهولين إما عيناً أو حالاً ومنهم المجروح وفيه أحاديث ضعيفة ومعلة ومنكرة) وللنسائي مصنفات كثيرة في الحديث والعلل. توفي رحمه الله سنة (٣٠٣) بعد أن عمر ٨٩ عاماً[1].

---

(١) تاريخ ابن كثير (جـ ١١ ص ١٢٣ - ١٢٤) ومقدمة شرح المجتبى للسندي والسيوطي.

أبو داود :

هو سليمان بن الأشعث بن إسحق الأسدي السجستاني ولد سنة (٢٠٢) ورحل في طلب العلم وكتب عن أهل العراق والشام ومصر وخراسان وأخذ الحديث عن مشايخ البخاري ومسلم كأحمد بن حنبل وعثمان بن أبي شيبة وقتيبة بن سعيد وغيرهم من أئمة الحديث وأخذ عنه ابنه عبد الله وأبو عبد الرحمن النسائي وأبو علي اللؤلؤي وخلق سواهم.أثنى العلماء عليه ووصفوه بالحفظ التام والعلم الوافر والفهم الثاقب في الحديث وغيره مع الدين والورع، فكان علماً من أعلام الحفاظ لحديث رسول الله ﷺ وسننه وأيامه. قال الحاكم أبو عبد الله: (كان أبو داود إمام أهل الحديث في عصره بلا مدافعة بمصر والحجاز والشام والعراقين وخراسان).

وكان علماء الحديث قبل أبي داود قد صنفوا الجوامع والمسانيد ونحوها فتجمع كتبهم إلى السنن والأحكام أخباراً وقصصاً وآداباً ومواعظ، فأما السنن المحضة فلم يقصد أحد منهم إفرادها واستخلاصها حتى جاء أبو داود فعمل على جمع أحاديث الأحكام والاقتصار عليها فاتفق له ما لم يتفق لغيره، وقد عرضها على أحمد بن حنبل فاستجادها واستحسنها، وقال إبراهيم الحربي: (لما صنف أبو داود هذا الكتاب أُلِينَ له الحديث كما ألين لداود الحديد) صنف أبو داود كتباً كثيرة وتوفي بالبصرة سنة (٢٧٥).

الترمذي:

هو الإمام الحافظ أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك السلمي الترمذي ولد سنة ٢٠٩ بترمذ،وكان إماماً ثقة حجة. أخذ الحديث عن جماعة كثيرة منهم: قتيبة بن سعيد وإسحاق بن موسى ومحمود بن غيلان وسعيد بن عبد

الرحمن ومحمد بن بشار وعلي بن حجر، وأحمد بن منيع ومحمد بن المثنى وسفيان بن وكيع ومحمد بن إسماعيل البخاري. وأخذ عنه الحديث خلق كثير منهم: محمد بن أحمد بن محبوب المحبوبي راوي الجامع عنه، وأبو حامد أحمد بن عبد الله المروزي، والهيثم بن كليب الشاشي، ومحمد بن المنذر بن شكر.

طاف أبو عيسى البلاد وسمع خلقاً كثيراً من الخراسانيين والعراقيين والحجازيين وكتب الحديث وصنف التصانيف العجيبة. منها: الجامع، وكتاب الأسماء والكنى، والشمائل، والتواريخ، والعلل، وكتاب الزهد، واتفقوا على إمامته وجلالته. ذكره ابن حبان في الثقات فقال: (كان ممن جمع وصنف وحفظ وذاكر) وقال أبو يعلى الخليلي: (ثقة متفق عليه)، ويكفي في توثيقه أن إمام الحديث والمحدثين محمد بن إسماعيل البخاري كان يعتمده ويأخذ عنه، وقال الحافظ ابن كثير: (روى عنه غير واحد من العلماء منهم: محمد بن إسماعيل البخاري في الصحيح). وعلى هذا فلا التفات إلى قول ابن حزم فيه، أنه مجهول. قال الحافظ ابن كثير: وجهالة ابن حزم لأبي عيسى الترمذي لا تضره حيث قال في مُحلاَّه:

(ومَنْ محمد بن عيسى بن سورة) فإن جهالته لا تضع من قدره عند أهل العلم بل وضعت من منزلة ابن حزم عند الحفاظ.

وكيف يصح في الأذهان شيء   إذا احتـاج النهار إلى دليل

وقال الذهبي في ميزانه: (محمد بن عيسى بن سورة الحافظ العَلَم أبو عيسى الترمذي صاحب الجامع ثقةٌ مُجمَعٌ عليه ولا التفات إلى قول أبي محمد بن حزم فيه في الفرائض من كتاب الاتصال أنه مجهول فإنه ما عرف ولا درى بوجود الجامع ولا

العلل التي له) أ هـ.

كُفَّ بصره في آخر عمره وتوفي رحمه الله تعالى بترمذ سنة (٢٧٩) هـ عن سبعين عاماً [1].

ابن ماجة:

هو أبو عبد الله محمد بن يزيد بن عبد الله بن ماجه (ماجه اسم ليزيد) القزويني صاحب كتاب السنن المشهورة والتفسير والتاريخ.

ولد سنة (٢٠٩) وارتحل لكتابة الحديث وتحصيله إلى الري والبصرة والكوفة وبغداد وإلى الشام ومصر والحجاز، وأخذ الحديث عن كثير من شيوخ الأمصار كأبي بكر بن أبي شيبة وأصحاب مالك والليث، وروى عنه خلق كثير منهم: ابن سيبويه ومحمد بن عيسى ا لصفار وإسحاق ابن محمد وعلي بن إبراهيم بن سلمة القطان، وأحمد بن إبراهيم جد الحافظ بن كثير، وسليمان بن يزيد.

قال أبو يعلى الخليلي القزويني: (كان عالماً بهذا الشأن صاحبَ تصانيف منها: التاريخ والسنن وارتحل إلى العراقين ومصر والشام)،وقال ابن كثير: محمد بن يزيد بن ماجه صاحب كتاب السنن المشهورة وهي دالة على عمله وعلمه وتبحره واطلاعه واتباعه للسنة في الأصول والفروع ويشتمل على اثنين وثلاثين كتاباً وألفٍ وخمسمائة باب وعلى أربعة آلاف حديث كلها حيادٌ سوى اليسيرة) وتوفي رحمه الله سنة (٢٧٣) أهـ.

---

(١) ميزان الاعتدال للذهبي جـ٣ ص ١١٧. البداية والنهاية للحافظ ابن كثير جـ ١١ ص ٦٦ – ٦٧.

الإمام ابن قتيبة الدينوري:

هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، وقيل: المروزي اللغوي صاحب كتاب المعارف، وأدب الكاتب، كان فاضلاً ثقة. سكن بغداد، وحدث بها عن إسحاق بن راهويه، وأبي إسحاق إبراهيم الزيادي (نسبة إلى جده زياد بن أبيه)، وأبي حاتم السجستاني وتلك الطبقة. روى عنه ابنه أبو جعفر أحمد الفقيه الذي تولى القضاء بمصر وقدمها سنة (٣٢١) ويقال: إنه روى عن أبيه كتبه المصنفة كلها، وممن روى عن ابن قتيبة أيضاً ابن درستويه الفارسي، وتصانيفه كلها مفيدة. منها ما تقدم ذكره، ومنها: غريب القرآن، وغريب الحديث، وعيون الأخبار، ومشكل القرآن، ومشكل الحديث، وطبقات الشعراء، والأشربة، وإصلاح الغلط وكتاب التفقيه، وكتاب الخيل، وكتاب إعراب القرآن، وكتاب الأنواء، وكتاب المسائل والجوابات، والميسر والقداح، وغير ذلك، أقرأ كتبه ببغداد إلى حين وفاته. قيل: إن أباه مروزي، وأما هو فمولده ببغداد وقيل بالكوفة، وأقام بالدينور مدة قاضياً فنسب إليها، إ هـ (من ابن خلكان).

علمه وفضله: قال شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه تفسير سورة الإخلاص بعد أن حكى القول بأن الراسخين يعلمون التأويل الصحيح للمتشابه ما نصه: وهذا القول اختيار كثير من أهل السنة منهم: ابن قتيبة وأبو سليمان الدمشقي وغيرهما، وابن قتيبة من المنتسبين إلى أحمد وإسحاق والمنتصرين لمذاهب السنة المشهورة وله في ذلك مصنفات متعددة. قال فيه صاحب كتاب التحديث: وهو أحد أعلام الأئمة والعلماء والفضلاء. أجودهم تصنيفاً، وأحسنهم ترصيفاً، له زهاء ثلاثمائة مصنف، وكان يميل إلى مذهب أحمد وإسحاق، وكان معاصراً لإبراهيم الحربي ومحمد بن نصر المروزي وكان أهل المغرب يعظمونه، ويقولون: من استجاز الوقيعة في ابن قتيبة يتهم

بالزندقة،ويقولون: (كل بيت ليس فيه شيء من تصنيفه لا خير فيه) أ هـ. قلت: ويقال: هو لأهل السنة مثل الجاحظ للمعتزلة، فإنه خطيب أهل السنة، كما أن الجاحظ خطيب المعتزلة.انتهى كلام شيخ الإسلام.

ثم ناقش رحمه الله ابن الأنباري في رده على ابن قتيبة فقال: وليس هو (يعني ابن الأنباري) أعلم بمعاني القرآن والحديث وأتبع للسنة من ابن قتيبة ولا أفقه في ذلك، وإن كان ابن الأنباري من أحفظ الناس للغة، لكن باب فقه النصوص غير باب حفظ ألفاظ اللغة أ هـ.

وقال الذهبي في الميزان: عبد الله بن مسلم بن قتيبة أبو محمد صاحب التصانيف صدوق قليل الرواية. روى عن إسحاق بن راهويه وجماعة.

قال الخطيب: كان ثقة ديناً فاضلاً. توفي في رجب سنة ٢٧٦.

التفعيل العملي للمفاهيم والأفكار الواردة في هذا الكتاب:

الأنشطة المصاحبة:

١ - إحياء عادة عوام المسلمين في اقتناء كتب السنة مع المصاحف بالمنزل.

٢ - إقامة حلقات في المساجد لتصبح قراءة السنة ومدارسة علومها أسوة بحلق التجويد.

٣ - تنفيذ مجلات حائط تهدف إلى تعريف الناس بالسنة.

٤ - إشاعة أسماء العلماء المشهورين في السنة بالطرق الممكنة.

٥ - دعوة العلماء المتخصصين في السنة، لإلقاء الدروس في المساجد.

٦ - تنظيم زيارات المتعلمين إلى علماء السنة للتعرف إليهم، والاقتباس من علمهم.

٧ - تعريف الناس بأعداء السنة للحذر منهم والرد عليهم.

٨ - تكليف المتعلمين تحضير الدروس قبل مدارستها في الفصل الدراسي.

٩ - تأليف كتيبات في ترجمة أعلام المحدثين.

١٠ - تنفيذ لوحات لترجمات أعلام المحدثين ومناهجهم، وكيفية الإفادة من كتبهم وتعليقها في المسجد وغيره..

١١ - تكليف المتعلمين قراءة الموضوعات لمناقشتها.

١٢ - الاستماع إلى أشرطة التسجيل.

١٣ - عمل جداول وتعليقها في الممرات والمساجد.

١٤ - مطالعة سيرة السلف الصالح.

١٥ - عمل ندوات يتم فيها عرض كتب للحديث وبيان جهد العلماء.

١٦ - كتابة لوحات عن أخلاق العلماء.

١٧ - عمل مجلات حائط.

١٨ - إجراء مسابقات في المساجد وغيرها من المؤسسات تدور حول هذا الموضوع.

١٩ - عقد مناقشات حول هذا الموضوع.

٢٠ - عقد ندوات تعرف بحياة هؤلاء الأئمة وجهدهم ومناهجهم.

٢١ - إجراء بحوث حول الموضوع.

٢٢ - تلخيص تراجم أعلام المحدثين.

٢٣ - الاستماع إلى الأشرطة المسموعة والمرئية.

٢٤ - عقد ندوات تناقش فيها السنة وأهميتها وحجيتها.

٢٥ - كتابة لوحات وتعليقها على جدران الصف.

٢٦ - إجراء مسابقات بين الدارسين ورصد جوائز للفائزين.

٢٧ - تكليف الخطباء حول أهم السنة وبيان دور المستشرقين.

٢٨ - محاضرت دورات تتناول عناصر المحتوى.

٢٩ - تسجيل المحاضرات والخطب والدروس وإهداؤها إلى عموم المسلمين من خلال مكتبة المسجد.

٣٠ - عقد ندوات تهدف إلى تعميق عناصر المحتوى، وتفنيد الشبهات

المثارة حول السنة.

٣١- متابعة المسلسلات التلفازية التي تروي حياة أئمة المسلمين والتعليق عليها.

٣٢- كتابة مقالات صحفية تتناول عناصر المحتوى.

٣٣- تنسيط المؤسسات التربوية والجهات العاملة في الميدان الأول ودورها في هذا الشأن.

٣٤- توفير مكتبة خاصة بعلوم السنة.

٣٥- إجراء بحوث في موضوعات المحتوى.

٣٦- كتابة الأحاديث وتعليقها في المساجد وغيرها.

٣٧- الاستعانة بأشرطة التسجيل والفيديو والحاسوب (الكمبيوتر).

التعلّم الذاتي:

أهداف التعلم الذاتي:

١ - يذكر مناهج المحدثين في تناول السنة النبوية.

٢ - يوضح السنة لغة واصطلاحاً عند المحدثين والفقهاء والأصوليين بشيء من التفصيل.

٣- يقرن بين الحديث النبوي والسنة الشريفة.

٤ - يبين بالأمثلة خبر الآحاد وهل يستدل به.

٥ - يشرح جهود الخلفاء الراشدين في حفظ السنة.

٦ - يشرح جهود العلماء في حفظ السنة في القرنين الثاني والثالث.

٧- يبين بالتفصيل عن تاريخ الرواة مع إعطاء نبذة عن علمهم في الجرح والتعديل.

٨- يبين جهود العلماء في خدمة السنة من أول القرن الرابع الهجري إلى سقوط الخلافة العباسية.

٩ - يبين جهود الإمام البخاري في خدمة السنة النبوية.

١٠ - يبين جهود الإمام مسلم في خدمة السنة النبوية.

١١ - يبين جهود الإمام مالك في خدمة السنة النبوية.

مراجع التعلم الذاتي:

١ - السنة النبوية ومكانتها في التشريع ،د. مصطفى السباعي.

٢ - المدخل لدراسة السنة، د. يوسف القرضاوي.

٣- المرجعية العليا في الإسلام والقرآن والسنة، د. يوسف القرضاوي.

٤ - السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، الشيخ محمد الغزالي.

٥ - السنة النبوية قبل التدوين، د. محمد عجاج الخطيب.

٦- مباحث في علوم الحديث، أ.د. صبحي الصالح.

٧- مباحث في علوم الحديث، د. مناع خليل القطان.



فهرس المحتويات

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة







دار عمار للنشر والتوزيع
عمان - ساحة الجامع الحسيني - سوق البتراء - عمارة الحجيري
هاتفاكس ٤٦٥٤٤٣٧ - ص.ب ٩٢١٦٩١ عمان ١١١٩٢ الأردن
E-mail: dar_ammar@hotmail.com